رواية

بيت السودان

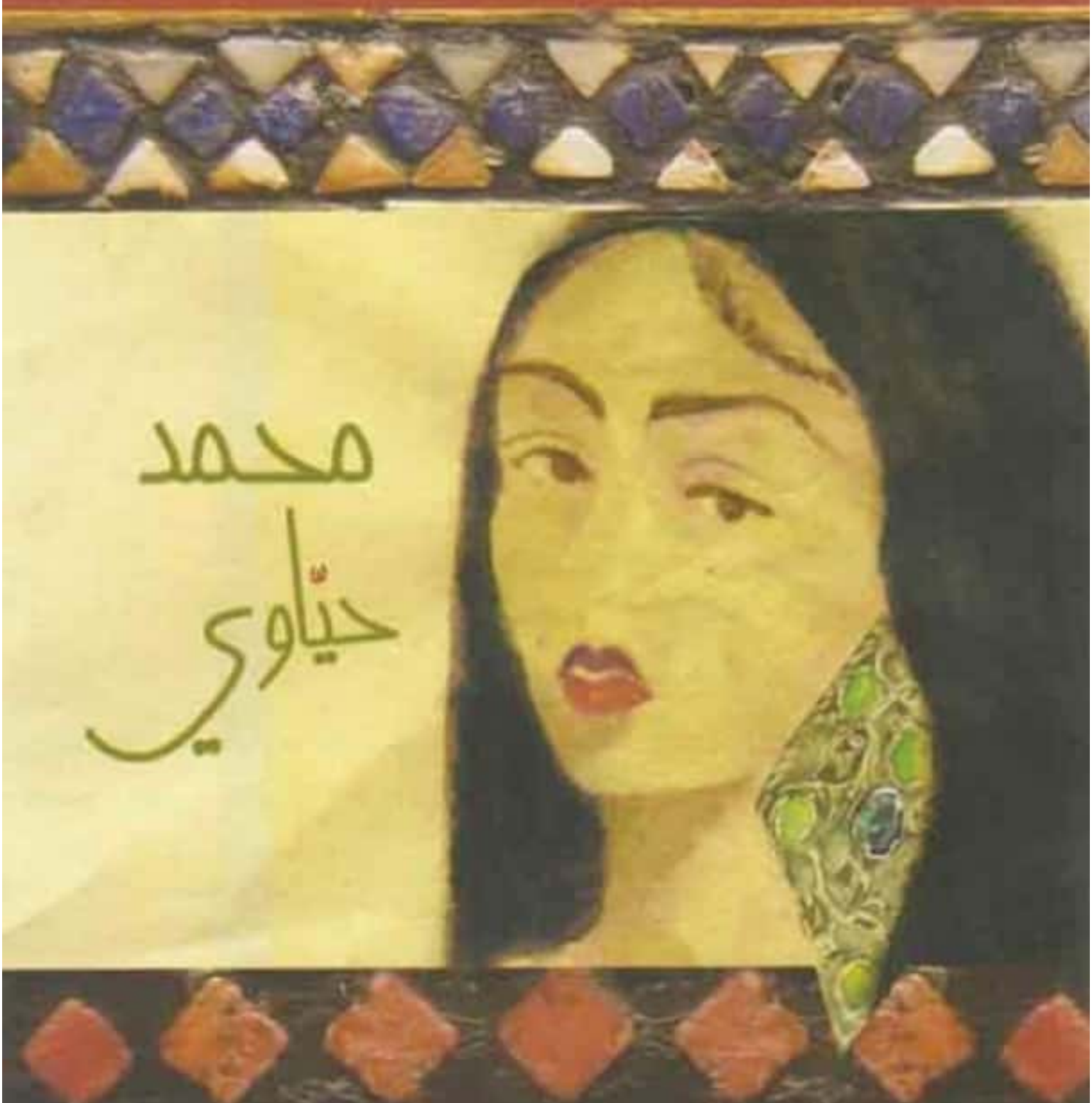

محمد حيّاوي

محمد حيّاوي

بَيت السّودَان

رواية

دار الآداب

جميع الحقوق محفوظة©

لَو أضغيتَ جيّدًا، فستسمَع نَقرَ الدُّفوف.

وإذا كان اللَّيلُ رائقًا والقمرُ متواريًا،

فسيكون في إمكانك رؤيةُ أعمدة النُّور تنبعثُ من الرَّماد

وتَرقص فوق الحُطام رقصتَها الأبديَّة.

فتشرَّبتُ باللَّيل كُلّه حتَّى صرتُ سوداء، كي تتمتَّع بالنُّور الصافي. اللَّيلُ المَحبوس في داخلي، أخاف أن أفتح فمي فيُغرقَك ويلفَّك بظُلمتهِ البهيمة. اللَّيلُ المُترَبِّص, ألا تراه؟ يتحيَّن الفرصةَ للهجوم عليك وافتراسك. لا تَغُض عميقًا في عينيّ ولا تُطِلِ النظر إليهما. ها أنا أحذِّرك. دَعني أكتمهُ لك كي لا يدهمَك. ساعدني كي أظلَّ مقاوِمةً رغبتَه وجوعَه الأسطوريَّ لاجتياحك، وأكتفيَ بقطعة صغيرة منه، هي تلك التي تُطِلّ بوجَلٍ من مقلتَيّ. أمّا الحُبّ، ذلك الظلُّ الواهنُ المتخاطفُ في أرجاء البيت، فلا تكترث له ولا تدعه يُعذِّبك، لأنَّه سرعان ما يختفي حين تغرب الشمس. وتلك المرأةُ التي في خيالك، مهما يكنِ اسمُها، تَمَسَّك بأذيالها. لا تُفلِتها مهما حدث. تلك المرأةُ!! ما بك؟ أقصد تلك السَّمراءَ ذاتَ الشَّعر الأجعد، والتي تشبه عيناها بُقعتَيّ قهوة. نعم تلك.

ـ ما بها؟!

ـ لا تتركها ترحل. حتَّى لو لزم الأمر تقبيلَ التراب الذي تحت قدميها.

ـ لكنَّني أكاد لا أعرفها! إنَّها تتغيَّر.

ـ ستعرفها ما إن تطلّ على روحها. دعك من جمالها. غُض في أعماقِها واكتشف ذاتَها.

ـ وكيف ذلك؟

ـ سهلٌ للغاية. تطلَّع إلى عينيها. فعيون النِّساء نوافذُ تُطِلُّ على أرواحهنَّ. هناك، بعيدًا في أعماقها، ستكتشف أسرارها، وستبوح لك بالحكايا. هل تفهمني؟!! لا تكُنْ أخطلَ وتذكَّر كلماتي هذه، حتَّى عندما تكبر. تذكَّر دائمًا أنَّك لا شيء من دون النِّساء اللَّواتي سيتجلَّين لك بأشكالهنَّ السَّاحرة وألوانهنَّ الباهرة، ولا تنسَ عفَّتك ولا تهرق ماءك إلّا في وعاء مُقدَّر حريٌّ بخلاصتك. اتبع شغفك فحسب، تُفلح. لا تقل إنَّني لم أخبرك. ها أنا أبرِّئ ذمَّتي وأضدقُك النُّصحَ. حياتك البائسة ستكون هائمة حول بيت السودان، أو مخاضة المتعة، أو بوابة المدينة، للعروج إلى سماء الذُّهول. ستجده ولا تجده، وتدخله ولا تدخله. لكنَّه، في المحصّلة، سيحلّق مرتفعًا في الفضاء حاملًا قاطنيه معه.

ـ أيُّ بيت؟

البيتُ القَصِيُّ عند تخوم المدينة، والذي تغلي حُجراته في الأصياف

كما التنانيرُ المُجمَّرةُ، ما بك؟ ذلك الحيّزُ المُعلَّقُ، كما لو كان جهنّم في سماواتها، لا يُضاهيه سحرًا وأعاجيبَ سوى ذلك الخسفِ العظيم كما أخبرتك.

ـ أيُّ خَسف عظيم؟! لم تخبريني عن أيّ خَسف، أنتِ!

ـ ذلك الخَسفُ البارد كما لو كان الجنَّةَ مدفونةً تحت رمال المقبرة. ما بك؟! الخسفُ الذي يجري فيه جدولُ الخمر وتظلّله دالياتُ الأعناب والتّين والزّيتون والنخلات الباسقات. ذلك الخسفُ ذو النّساءِ السّبعِ اللاهيّاتِ يعبثنَ بشعورهنّ وطيورهنّ ويعزفنَ على ربابتهن الحنّاء.

ـ عمَّ تتحدّثين أنتِ في أيّ حال؟!! جهنّمُ مُعلّقةٌ في السّماء، وجنّةٌ مدفونةٌ تحت المقابر؟!! أيُّ هراء هذا!

ـ نعم، يا عزيزي. عقلك البشريُّ لا يتّسع لمثل هذا الخيال. أعرف ذلك. لكنْ، صدّقني ولو هذه المرّةَ فقط، فإن لم تفعل فستتبدّد روحُك هباءً وتتعذّبُ وتتوه في غياهب الطُّرُق المتقاطعة، ويتلاعب فيك السّحَرةُ. فالحكايا التي ستسمعها، والوقائعُ التي ستعيشها، يشيب لها شعرُ الرضيع. إنّني أحذّرك فحسب. لا تصدّقْ كلَّ ما يقال، وتمسّك بالمرأة ولا تدعْها تتوه منك. فهي هاديتُك ووسيلتُك للخروج سالمًا من مخاضةِ الحكايا.

✺ ✺ ✺

منذ طفولتي، اعتدتُ تتبُّعَ النِّساء في الطُّرقات والأزقَّة والأسواق. شيء ما يجذبني إليهنَّ في الحقيقة: خفقُ عباءاتهن السُّود، أو البياضُ المهادن لكعوبهنَّ الراكضة حين تنحسر العباءاتُ عنها. نساء كثيرات، طويلاتٌ تتمايل جذوعُهن حين يمشين بتؤدَة، وقصيراتٌ بخطى مُتقافزة، وأخرياتٌ ممتلئات الأجسام تتكوَّر العباءات حولهن وتلتفّ في الرِّيح. نساء شبه حاسرات يرمين أعلى العباءات خلف أكتافهنَّ ليكشفن عن صدورهن النواهد، ويسمحن للريح بتطويح جدائلهن المنفلتة، أو يجمعن أطراف العباءات حول خصورهن بطريقة تُبرز تكوُّرَ عجيزاتهنَّ الرجراجة، وأخرياتٌ يُحِطنَ وجوههن بسواد تلك العباءات إحاطةً تامَّة فلا تظهر سوى عيونِهنَّ الواسعةِ وكفوفِهنَّ البيضِ الناعمة. نساء يَقُدنَني إلى أماكنَ غريبة، قبل أن يَلِجنَ البيوتَ ويُغلقن الأبواب خلفهن، فأبقى محوُمًا في الفراغ. وما إن ألمح غيرهن أتبعهن ليَقُدنني بدورهن إلى عوالمَ أخرى مختلفة. حتَّى عندما كبرت، لم أستطع التخلُّص من تلك العادة الغريبة. في الواقع، لطالما أدَّتِ النِّساء دورًا في حياتي ورسمِ مصيري وتجسيدي. إنَّهن صانعاتٌ ماهراتٌ، مثل مَثَّال حاذق، تُلصق إحداهن أذني في مكان مرتفع قليلًا فتأتي الأخرى لتنتزعها وتُلصقَها من جديد في مكان مناسب. تحفر إحداهن نقرة سرَّتي بسبّابتها الرَّفيعة في مكان منخفض قرب عانتي، فتأتي أخرى لتردم الحفرة وتصنع لي سرَّة جديدة في مكان مناسب. لطالما حوَّرتِ النِّساءُ شكلي وعدَّلن فيه، حتَّى أصبحتُ في النهاية ما أنا عليه الآن، حصيلة النِّساء وتعديلاتهن التي لا تنتهي. ربَّما لهذا السَّبب سحرنني وصرت أتبعهن في الطُّرقات والأزقَّة المتداخلة. لكنَّ تلك الظهيرةَ القائظة كانت مختلفة كلّيًا عن غيرها، عندما تبعتُ تلك المرأة الصغيرة التي كانت تترك عباءتها للرِّيح لتخفق خلفها مثلَ غراب أسطوريّ، وكنت أتبعها كالمأسور حتَّى انقطع نعلي وصرت أمشي على الأسفلت اللَّاهب تحت أنصال الشمس حافيًا. تبعتها من زقاق إلى آخر، من دون كلل أو ملل أو استسلام لِلَسعِ الأسفلت أو الحصاة الحامية كالجمر تحت باطن قدميّ. تبعتها وهي تجتاز مفازات منقطعة عن المدينة؛ وهي تلج بساتين النخل، أو تجتاز المقابر المهجورة؛ وهي تجوب بين القبور بحثًا عن قبر ما، تارةً تغيبُها دوَّاماتُ الرَّمل عنّي، وتارة ألتقط أثرها. مرَّة تقعي قرب أحد القبور، ومرَّة تفتح صرَّتها التي كانت تحملها طوال الوقت. كنتُ تَعِبًا، وكانت قدماي متقرِّحتين، وحلقي متيبِّسًا من العطش، فجثوت في ظلّ قبر عالٍ تظلّله شجرة سدر صغيرة ونمتُ، فحلمتُ بتلك المرأة التي تبعتها في ذلك النهار. كانت مجرَّد فتاة صغيرة السِّن لا يتجاوز عمرها سبع عشرة سنة

تقريبًا، وكانت سمراء بوجه مستطيل وفمٍ عريض وعينين سوداوين واسعتين وشعرٍ فاحم طويل. صبَّتِ الماء بكفِّها الصغيرة وغسلث وجهي المعروقَ فأجفلَتني، ثمَّ أمسكث بطرف ثوبها ونشَّفتني، فشعرتُ بارتياح لذيذ. كانت تنبعث منها رائحةٌ غريبة تشبه رائحة الأضرحة. أمسكث بيدي وقادتني إلى مكان ما في المقبرة. كان أشبه بخَسف مَهُول في الأرض الرَّمليَّة، تظلِّله الأشجارُ والنخيلُ وتنبع فيه عينُ ماء رقراقٍ يتجمَّع في جدول صغير، وتحوم العصافير والبلابل في فضائه، وترقص الطواويس نافخة ريشَها في جَنَباته، ورأيتُ، من بين ما رأيتُ، سبعَ فتيات سوداوات يُشبهن الحوريات، يجلسن باسترخاء حول العين. كانت الأولى تمشِّط شعرها الأسود الطويل بمشط خشبي، والثانيةُ تُروِّح بمروحة يدويَّة بتكاسُلٍ، والثالثةُ تتمدَّد تاركةً أطرافَ ثوبها الأزرقِ الطويل تلعقه مياهُ الجدول، والرَّابعةُ تعزف على ربابة عزفًا حزينًا، والخامسةُ تتمايل على عزف الربابة ذاتها، والسَّادسةُ تُطعم التمرَ لطيورٍ في أقفاص لم أرَها من مكاني، بينما راحت السَّابعةُ تسبح في مياه الجدول الضَّحلِ وتلوِّح لنا من بعيد، من عمق الواحة العجيبة في ذلك الخَسف المَهُول من الأرض. كنَّا، أنا والفتاة الشابَّة، منبطحَين على بطنينا، عند حافَّة الخسف لنشرف على ذلك المشهد الملوَّن والبارد وسط هجير المقابر والصحراء. وفجأة وضعت الفتاةُ ذراعَها حول رقبتي، وقالت:

ـ أولئك نحن. انظز إلينا كم نحن جميلات. هل عرفتني من بينهن؟ احزر: أيُّهنَّ أنا من بين أولئك الفتيات السَّبع؟ إن حزرتَ أُعطِك قبلة من فمي.

تطلَّعتُ إلى وجهها الأسمر. كان ناعمًا وذا لون ذهبيٍ يتقاطع على صفحته خطًا حاجبيها الطويلين وأنفُها المستقيم، وكانت ابتسامتها مهادنة، وشفتُها العليا الممتلئة مرفوعةً قليلًا، كاشفةً عن قواطعها البيض، على نحوٍ يعطيها شكلًا أليفًا. وكان العَرق وذرَّاتُ الرَّمل تعفِّر وجهينا وتندسُّ تحت إبطَي كلٍّ منَّا. نظرتُ إلى الفتيات غير العابئات في الأسفل، وأشرت إلى تلك السابحة في الجدول.

ـ تلك أنتِ هناك، التي تسبح في الجدول وتلوِّح لنا من بعيد.

ضحكتِ الفتاة وأحكمث ذراعها حول عنقي، ووضعث شفتيها فوق شفتيَّ، وضغطث بقوَّة حتَّى شعرتُ معها بأسنانها تعضني ولسانها يلعقني. كنت منغرزًا في الرَّمل الذي تحتي، وكان طريًا وناعمًا وساخنًا ولذيذًا. وكان يميد من فرط الضغط، وما فتئتِ الفتاة تعضُّني من أذني ورقبتي،

ولسانُها الطويل يلعق صدري، وما إن قلَّبتها حتَّى راحت تموء تحتي.

ـ على رِسلك يا صغيري، تمهَّلْ.

وبقيت أضغط وأتشبَّث بكتفيها المقوَّستين، مثلَ غريق، وكانت تردِّد «على رِسلك، يا صغيري». وعندما انتهيت وانطفأ فحيحي انقلَبتُ جانبًا وتأمَّلتها. كانت تغوص إلى النِّصف في الرَّمل السَّاخن. نظرتْ إليَّ مُبتسمةً مستسلمةً، وقالت:

ـ انظز إليَّ!! لقد هصرتني هصرًا! ما بكَ؟ ألم تَرَ امرأة من قبل؟

حرَّكتُ رأسي علامةَ النفي.

ـ هل تقصد أنَّ هذه كانت مرَّتَك الأولى؟

فحرَّكت رأسي علامةَ الإيجاب.

انتزعت جسدها من الرَّمل وأمسكت برأسي وضمَّته إلى صدرها، وهي تقول:

ـ يا إلهي، ماذا فعلتُ بك؟ يا لصغيري المسكين، لم أكن أعرف.

وراحت تلمُّ أطراف ثوبها حول ركبتيها.

ـ لِمَ تبعتني كلَّ هذه المسافة؟ ما الذي جذبك إليَّ؟

ـ لا أدري، أحيانًا أجد نفسي منقادًا إلى تتبُّع النِّساء في الظهيرات. هي عادة درجتُ عليها منذ طفولتي.

ـ يا لغرابتك وجنونك. أنت مأسور وروحك هائمة. قل لي: منذ متى وأنت في هذه الحال؟

ـ منذ مدَّة، وتحديدًا منذ الاشتعال الكبير.

كانت تتحدَّث وهي تمسح الرَّمل عن وجهي وتبتسم، قبل أن تنقلب على بطنها وتعود إلى تأمُّل مشهد النِّساء السَّبع في الواحة السحيقة.

ـ لو عدتَ في الأيَّام المقبلة لأطلعتُك على أسرارنا كلِّها. ما رأيُك؟

تأمَّلتُ ابتسامتها المهادنة وبريقَ عينيها السَّوداوين:

ـ أنا تقودني النِّساءُ فحسب. أجدني مأسورًا لتتبُّعهن.

ـ اتَّفقنا إذن. ستقودك إحدانا كلَّ يوم لتُطلعك على سرِّها. ما رأيُك؟

أومأتُ لها برأسي موافقًا، وعدتُ إلى تأمُّل النِّساء العابثات في بحبوحتهن من بعيد، وشعرتُ بنسمة هواء عليل تُداعب غزَّتي، وبالنُّعاسِ يُمسك بتلابيبي، فركنتُ رأسيَ إلى ذراعي وغفوت، فحلمت بالنِّساء السَّبع يَجُرِّنني من ذراعيَ ويُدخلنني في مياه الجدول، وهنَّ يتضاحكنَ، ثمَّ

نَضَوْنَ ملابسي عنّي ورُحنَ يسبحن حولي في المياه الرقراقة ويداعِبنَني.

✺ ✺ ✺

عندما صحوتُ، كان النهار قد أفلَ، والشمسُ اختفت خلف البساتين البعيدة، وتناهى إلى سمعي صوتُ أذان يُرفَعُ من مئذنة ما قرب المقبرة، فنهضت ونفضت ثوبي من الرّمل، وأقفلتُ عائدًا إلى المدينة التي باتت تتأهّب للعشاء. كانت الشّوارع خالية من المارّة، والنّخلُ اكتسى خضرةً داكنة في إثر هبوط المساء، ولاحت المقبرةُ خلفي تغالب سرابَ الرّمل المنسفح من تخوم الصحراء. وقرب بيتنا، أقصد «بيت السودان»، لمحتُ زيدان الحوذيّ يفصِلُ الحصان عن العربة تمهيدًا لأخذه إلى الإسطبل الذي يبيت فيه كلَّ ليلة، بينما استندتِ العربةُ ذاتُ الإطارين إلى قائمتيها مقعيَةً، وآثارُ بقايا التبن والطماطم الفاسدة توشّي زواياها. طرقت الباب، وبقيت أراقب زيدان من بعيد وهو يعالج حصانه الذي بدا أنّه يعرج نتيجة كدح النهار، وسمعت صوت جدّتي «عجيبة» ينادي مِن الداخل:

ـ مَن هناك؟

ـ أنا عليّ يا جدّتي، افتحي.

ـ أين كنتَ حتّى هذه الساعة يا بُنيّ؟ لحسن الحظ أنّ أمّك ياقوتَ لم تأتِ بعد. اذهبْ واغسلْ يديك ووجهك لتتعشّى.

كانت جدّتي «عجيبة» امرأةً طيّبة وتحبّني كثيرًا، ولطالما تستّرت على حماقاتي وتصرُّفاتي الغريبة. وكانت تحاذر أن تسمع أمّي ياقوتُ، التي يخشاها الجميع، بعنادي. لا أدري، في الحقيقة، إن كانت جدّتي حقًّا، أم أنّها أمُّ ياقوتَ، أمْ إحدى نساء بيت السودان العجيب الذي اكتشفت أنّني أعيش فيه منذ وعيت على الدُنيا، على الرّغم من أن بشرتي بيضاء تمامًا. كانت ياقوتُ امرأةً سوداء، مشدودةَ القوام، طويلةَ القامة، وذاتَ شخصيّة قويّة تفرض هيبتها واحترامها على الجميع، ولاسيّما زوّارُ المساء من باعة الخردة والكَسَبة، الذين يأتون إلى بيت السودان في ليالي الجُمعات للتمتُّع برقص ياقوتَ وصوتِ الموسيقى والغناء الذي كانت تُديمه مجموعةٌ غير متجانسة من العازفين والمُنشدات، جميعُهم من ذوي البشرة الدكناء. ولطالما سألتُ جدّتي «عجيبة» والفتياتِ الأخريات عن حقيقتي، وفيما إذا كنت ابنَ ياقوتَ فعلًا، ولم أحصل على جواب شافٍ في الحقيقة. منهنّ من تقول إنّها كانت تحبّ رجلًا أبيض تزوّجته فترةً وجيزة وزرعني نطفةً متمرّدة في أحشائها ذاتَ ليلة فائرة قبل أن يختفيَ. ومنهنّ من تقول إنّهم عثروا عليّ وليدًا ملفوفًا بقطعة قماش خلف سياج المشفى الكبير. لكنّ ما يهمُّني أنّ الجميع هنا يحبّني ويدلّلني ويعطف عليّ ويلبّي طلباتي بفرح وحبّ غامرَين، حتّى «صُمد»، ذلك العجوزُ المتبرّمُ غريبُ الأطوار، والذي

يعمل حارسًا في المقبرة الملكيّة في أور في أثناء اللّيل.

ـ لِمَ اختاروك حارسًا للآثار في أثناء اللّيل، يا صُمد؟

يضحك بملء فمه حتّى تبين أسنانه الصفرُ المثلّمةُ، ويقول:

ـ لأنّني أسودُ لا أحد يراني في اللّيل.

ولـ «صُمد» حكاياتٌ عجيبة في الحقيقة لطالما ألهبت خيالي. ففي الظهيرات، عندما يأخذ الجميع في بيت السودان قيلولتَهم، يُجلسني قرب عشّ الحمام على السّطح حيث فيءُ نخلة مُطلّة من الباحة المجاورة، ويحكي لي كيف أنّ أرواح أجدادنا السومريّين تطوف حوله في اللّيالي، وكيف يخبرونه بقصّتهم مع زوار كوكب نيبيرو من العمالقة، حتّى إنّه أراني حجرًا منقوشًا ذات يوم قال إنّهم أعطوه إيّاه ليعرف المستقبل، ووعدني باصطحابي إلى المقبرة الملكيّة ذات ليلة خِلسةً من أمّي ياقوتَ التي يخشى غضبها. والغريب أنّه كان يتنبّأ بالأحداث قبل وقوعها بأيّام، ولطالما عدّته جدّتي «عجيبةُ» مجنونًا يتلبّسه الجِنُّ الذي يسكن تلك المقابرَ، لكنّ أمّي ياقوتَ كانت تصغي إلى نصائحه وتستشيره في بعض الأمور. وهو لا ينام على الإطلاق، ولا تستهويه الجَلَبَةُ والرقصُ والموسيقى التي تنعقد جلساتها أيّام الجُمعات، ويمضي جُلّ وقته على السطح قرب عشّ الحمام الذي يعتني به، يُدخّن سجائره اللّفّ ويحتسي الشاي الأسود.

لم يكن الفارق في السّن بيني وبين أمّي ياقوتَ كبيرًا في الحقيقة، فهي تكبرني فقط بعشر سنوات. وعندما بلغتُ سنّ السّابعةَ عشرةَ وتغيّرتُ واشتعلتْ رغباتي، كانت هي في السّابعة والعشرين من عمرها. كانتِ امرأةً ناضجة ذاتَ ملامح دقيقة وعينين واسعتين بلون البُنّ وشفتين ممتلئتين ورقبة طويلة يتدلّى فوقها قرطاها الفضيّان ذَوَا الأهلّة والنجومِ والأحجار الخضر. كانت علاقتنا لا تشبه علاقة الابن بأمّه في الحقيقة. وعندما نكون وحدنا تعاملني مثلَ صديق، وتُجلسني قبالتها وتقدّم إليّ الشاي والكعك، وتمسح بيدها الصغيرة على رأسي ورقبتي بحنوٍّ، وتتأمّلني بصمت مشوب بنظرة عشقٍ وَوَلهٍ عميق.

ـ كلّما تكبر تزداد وسامتك يا ملعون. ماذا تراني فاعلةٌ بعيون النّساء من حولك. هل ما زلتَ تحمل التميمة؟ أخبرني.

ـ أووووه. أيُّ تميمة يا أمّي؟

ـ التميمة التي صنعَتْها لك جدّتُك «عجيبة». ويحك. إيّاك أن تخلعها.

ـ إنَّني أحملها لأجلك فحسب، كي لا تغضبي منِّي.

ـ لا بأس في ذلك. المهم ألّا تخلعها أبدًا يا حبيبي.

ليس ثمَّة رجلٌ ما في حياة ياقوتَ على الرَّغم من نضجها وأنوثتها الفادحة، بل يُخيَّل إليّ أنَّها كانت تستخفّ بهم وتسخر منهم عندما يعرضون عليها خدماتهم أو يتودَّدون إليها، كما أنَّ الجميع يخشى حضورها العفويَّ الطاغيَ وقوةَ شخصيَّتها، حتَّى رجالُ الأمن الذين يأتون في بعض الأحيان ليشاهدوا رقصها أو يتقاضوا ما تهبه لهم من رشًى. وعلى الرَّغم من أنَّ البيت مليءٌ بالنِّساء والرِّجال الأكبرِ أو الأصغرِ منها سنًّا، فإنَّها تبقى سيِّدةَ بيت السودان المُطلَقةَ وأميرتَه غير المتوَّجة. وبما أنَّني ولدها الأبيض والوحيد، فقد حظيتُ بمنزلة الحبّ والاحترام نتيجة لمنزلتها تلك. وفي اللَّيل، عندما تُنهي رقصها وتستحم، تُهيِّئ لها الفتياتُ سريرَها المصنوع من الجريد على السَّطح، ويَنصبنَ فوقه النَّاموسيَّةَ، ويضعنَ صينيَّةَ الفاكهة والماءَ المثلَّجَ والنرجيلةَ قربه، فتجلس متربِّعةً وتُجلسني إلى جانبها، بينما تتجمَّع الفتيات الأخريات من حولنا يثرثرنَ ويتضاحكن ساخرات من الرِّجال السُّكارى الذين أسرهم جمالُ ياقوتَ حتَّى ساعةٍ متأخِّرة من اللَّيل. هكذا نشأتُ في الحقيقة تحت جناح ياقوتَ المعطَّرة، ذاتِ الحضور الطاغي والقدرةِ الهائلة على الحبّ والصبر والتحمُّل واستيعاب المشاكل.

ـ انظر، يا حبيبي. كلُّ بنت من هؤلاء الفتيات مشكلةٌ تمشي على قَدَمين. انظر إلى تلك هناك؛ تلك التي تعقص شعرَها بالشال الأصفر. أقصد تلك التي لا تستطيع رفع نظرها عنك منذ دخلَتْ هذا المنزل، هاربةً من أهلها في البصرة لأنَّهم أرادوا تزويجها برجل طاعن في السنّ من أجل المال، وقد لجأت إليّ فآويتُها وأطعمتُها وحفظتُ لها كرامتها. انظر ما أجرأها. تكاد تأكلك بنظراتها التي تقطر شهوة.

ثمَّ تلقي بذراعها فوق كتفي وتجذبني إليها، وتهمس في أذني ضاحكة:

ـ هل تريدها؟ ها؟ لا تخجل. الفتاة ستطلع عيناها لهفةً عليك. إنَّها جميلة. ما رأيُك.

وقبل أن أجيب، تصدح ضحكتُها الرنَّانة في فضاء السطح، فتضحك الفتيات لضحكها من دون أن يعرفن الحكاية. وبعد أن تسحب نَفَسًا من نرجيلتها، وتنفثُ الدُّخان بعيدًا، تعود إلى احتضاني فيدهمُني عطرُها

ورائحةُ شعرها.

ـ أمزح معك، يا حبيبي. لن أسمح لهن بتدنيسك ما حييت. المهمّ ألّا يسيل لعابُك على إحداهنّ وتفعلَها خلسةً منّي. هل ستفعلها؟

ـ أفعل ماذا يا أمي؟

ـ أن تشتهيَ إحداهنّ وتواقعَها خلسةً.

ـ لا، لن أفعل ذلك. اطمئني. سبق أن وعدتكِ.

ـ وإن فعلتَها ماذا تُراني فاعلةً بك.

ـ أمّي!! قلت لك لن أفعلها. ما بكِ؟

تنظر من حولها خلسةً، ثمّ تقرّب فمها من أذني، وتهمس ضاحكة كعادتها:

ـ سأقصُّه لك.

ـ ماذا؟

ـ سأقصّه، صدّقني. ما بك خفتَ إلى هذا الحدّ؟

ـ لأنّني أعرفك. ستفعلينها.

فتصدح ضحكتها من جديد وتعانقني بقوّة، وهي تردّد:

ـ يا حبيبي، يا حياتي أنت. ليقطّعوا جسدي قِطعةً قِطعةً ولا يمسّون شعرة منك. ما بك، يا صغيري الغشيم؟

كان أكثرُ ما يُنغّص على ياقوتَ أيّامَها، شدّةَ تعلُّقي بـ«ضُمد»، وشغفي بحكاياته الأسطوريّة، وتيهي في الأزقّة هائمًا أتتبّع النّساء كما لو كنت مغيّبًا عن الوعي، ولاسيّما في الظهيرات حين تخلو الشوارع من المارّة. وذات مرّة، قرّرت ياقوتُ طرد «ضُمد» ومنعَه من المجيء إلى بيت السودان لولا تدخُّلُ جدّتي «عجيبة» وتوسّلاتُها، فعدلتُ عن الفكرة، ليس نزولًا عند رغبة «عجيبةَ» فحسب، بل لطبيعتها المفطورة على الطّيبة والرّحمة ومساعدة الآخرين. وكانت تغمز، بشكل غير مباشر، إلى علاقة قديمة، على ما يبدو، بين «عجيبة» و«ضُمد»؛ قِصّةِ حبّ أو ما شابه كانت تجمعهما في الماضي ربّما، أيّامَ كانت «عجيبة» تدير حلقة للرّقص والغناء في مدينة الزبير. لكنّ أكثرَ ما كان يحيّرني هو اختفاؤهما في أثناء اللّيل، كما لو كانا يتحوّلان إلى كائنين غير مرئيّين، ليس بسبب لونهما الداكن، لكن بسبب غموضهما وهالاتِ السحر التي يديمانها حول نفسيهما.

حتّى عندما كبرتُ، لم أستطع النوم وحدي إلّا إذا تمدّدت إلى جانبي

ياقوتُ وحضنتني، فيُغرقُني عطرُها وأدفنُ رأسي في لجَّة شعرها المجعَّد الناعم، وأتحسَّسُ دفء جسدها الصقيل. كان صوت أنفاسها، وهي نائمة بعمق من التعب، بمثابة المهدِّئ الذي يدغدغ أعصابي ويُرخيها. أمَّا هي، فكانت تعاملني مثلَ طفل، حتَّى عندما بلغت العشرين من العمر، فما زالت غيرَ متحفِّظةٍ أمامي، وتغيِّر ملابسها وترتدي ثوب نومها تحت ناظرَيَّ، فألمح بطنها المخسوفَ وسرَّتها الغائرة وتكوُّرَ عجيزتها الصغيرة. وكنت أفكِّر في سرِّي: أيُّ رجل سيصمد أمام جسدها العاجيِّ المنحوت هذا؟ وأيُّ أنوثة تُكتَم عنوةً وهي تعضُّ على رغباتها الدَّفينة بنواجذ المكابرة واستدعاء القوَّة؟ وشيئًا فشيئًا، بدأتِ اللَّوعةُ تداعب خيالي وصرتُ أعجز عن كتمها، وخصوصًا أنَّ ياقوت بَنَت جدارًا من الخوف والحذر بيني وبين فتيات بيت السودان الفائرات بدورهن، وهنَّ يكتمن أمواج الرَّغبة. فقد كان شرطها على الجميع ألَّا يدخل الدَّنَس بيتَ السودان على الرَّغم من أنَّه يبيع المتعة عن طريق الرَّقص والغناء اللذين لطالما كانا متلازمَين، في خيالات الآخرين، بالجسد. وما إن تسقط إحداهن أو تظهر عليها علاماتُ السُّقوط حتَّى تسارعَ ياقوتُ إلى طردها من دون رحمة، وتصمَّ أذنيها عن توسُّلات الجميع. وكان الطردُ من جنَّة بيت السودان بمثابة الحكم بالإعدام على أيِّ فتاة من فتياته السوداوات، ذلك لأنَّهنَّ جميعًا لا بيوت بديلة لهنَّ ولا عائلات، أغلبهن التقطتهن «عجيبةُ» من الباحات الخلفيَّة لمستشفيات الولادة، أو أتين بأرجلهن هربًا من فضيحة ما في مدنهن البعيدة. لكنَّ الأمر الذي ظلَّ يحيِّرني هو كيف تَصادَفَ أن يكنَّ جميعًا من ذوات البشرة الدَّاكنة؟ هل كانت «عجيبة» تتجنب الأطفال اللقطاء من ذوي البشرة البيضاء؟ هل كانت تخشى المشاكلَ المحتملة التي قد تحدث لها في حال جلبتهم؟ ولماذا استثنوني من هذه القاعدة؟ هذه الأسئلة ظلَّت تؤرِّقني لسنوات طويلة في الحقيقة.

في الصباحات، عندما نصحو متأخِّرين، تعمل لنا «عجيبة» طعام الفطور، ونجلس أنا وياقوتُ نأكل معًا، وفي أغلب الأحيان كانت تغمس قطع الخبز بالقيمر والدبس وتُطعمني، ثمَّ تراقبني وأنا آكل بصمت، بينما تتظاهر «عجيبة» بالتشاغل في إعداد الشاي.

ـ انظري يا «عجيبة» كم وجهُه مورَّدٌ هذا الصباح.

ثمَّ تمدّ يدها وترفع غرَّتي عن حاجبَيَّ وتهمس:

ـ يا حبيبي، يا طفليَ الصغير. فديتك بالدنيا.

فتنظر «عجيبة» بعينيها الدعجاوين، وتقول:

ـ وكيف لا يتورّد وجهُه وهو ينام في حضن قطعة من الزبرجد.

ـ أمي!! ما هذا الكلام الذي تقولينه؟

ـ وماذا قلت؟! أليست هذه الحقيقة؟ تحضنينه طوال اللّيل، وتهدهدينه كما لو كان طفلًا صغيرًا.

ـ لا تُخجليه بكلامك الغريب هذا. ما بك؟!

في الواقع، لم تساور أحدًا الشكوكُ بشأن علاقتنا الغريبة، حتّى الفتياتُ الشابّات اللّواتي يتودّدن إليّ خلسة عندما يختلين بي. فأنا أيقونة سيّدة البيت المقدّسةُ، والتي لا يجوز المساسُ بها أو الاقترابُ منها، على الرّغم من أنّني صرت في الأشهر الأخيرة أشتهيهنّ بطريقة أو بأخرى. لكنْ، حتّى أنا أخاف غضبَ ياقوتَ وحرصَها المبالغَ فيه عليّ. وشيئًا فشيئًا، بدأت لوعتي تزداد، وشغفي يكبر، ولهفتي تتكشّف، وكانت الفتيات يلحظنَ تلك اللّهفةَ بوضوح، لكنّهنّ كنّ يتجنّبنَني مُحاذراتٍ. وذاتَ ليلة شتائية باردة، تمدّدتُ في السّرير في انتظار ياقوتَ التي دخلت مُرتديةً ثوبًا أبيضَ شفّافًا يكشف عن كنوزها بطريقة مَهُولة، ثمّ تمدّدَتْ إلى جانبي، ومدّتْ ذراعها تحت رقبتي واحتضنتني بقوّة، وكنت أحاذر الالتصاق بجسدها الصقيل خوفًا من أن تكتشف توتُّري، لكنّها رمت ساقها فوق بطني مداعبةً، وهالَها انتصابي الفادحُ، فشهقتْ كالملسوعةِ وقفزتْ منتصبةً إلى جانب السرير، وظلّت تراقبني بصمت برهةً من الزّمن قبل أن تجلس وتشعل سيجارة. كان ظهرها ناحيتي، ولم ألحظ وجهَها، وكنت مرتعبًا وأرتجف، فمدَدْتُ يدي ومسّدتُ على ظهرها بصمت. ومن دون أن تنظر إليّ، قالت بما يشبه الهمس:

ـ منذ متى وأنت هكذا؟

ـ ...

ـ أجِبْ! ما لك أبلمتَ؟!

ـ بماذا أجيب؟

ـ منذ متى وأنت تُستثار هكذا؟

ـ لا أدري. منذ مدّة.

ـ ولِمَ لَمْ تخبرني؟

ـ وكيف أخبرك؟ ماذا أقول لك؟!

واصلتْ تدخين سيجارتها بصمت، لكنّني كنت أشعر بتوتُّرها،

فانتصبتُ جالسًا على السَّرير خلفها ورحتُ أبكي:

ـ أنتِ لستِ أمِّي، أليس كذلك؟

ـ لِمَ تقول هذا الآن؟

ـ لا أدري. أقصدُ لو كنت أمِّي حقًّا لما تحرَّكتْ لديَّ الـ..

ـ اسكتْ. ويحك. حتى لو لم أكن أمَّك، فقد ربَّيتك منذ كنت طفلًا صغيرًا إلى أن صرتَ رجلًا! والآن، تراودك الخيالات المريضة. كان يجب أن أدرك أنَّك لست جديرًا بحبِّي وعطفي عليك. نعم، كنت أعرف أنَّك ما إن تكبر حتَّى تتحوَّل إلى رجل مثلهم. فيمَ تختلف عنهم؟

وراحت تبكي بحرقة وتقول:

ـ ماذا فعلتُ بنفسي. لقد ربَّيت ذئبًا صغيرًا في حُجري، معتقدةً أنَّه سينسى طباع الذئاب. يا لسذاجتي وغبائي. لقد جاءت اللَّحظة التي كنت أخشاها، وها أنت تفرد جناحيك لتحلِّق بعيدًا عنِّي. ماذا عساي أفعل إن رحلتَ وتركتني حين تقودك شهوتك كالأعمى. ويح قلبي أنا. يا لفجيعتكِ يا ياقوت. ماذا فعلت بنفسك؟

كانت تبكي بحرقة وجسدُها يهتزُّ بقوَّة، فاقتربت منها وألقيت بذراعي فوق كتفها محاولًا التخفيفَ من غضبها، لكنَّها رمتْ ذراعي بعيدًا عنها وصاحت منتفضة:

ـ ابتعدْ عنِّي. لا تلمسني. اتركْني الساعةَ. دعني لهمِّي وفجيعتي بك.

فابتعدت عنها جافلًا وبقيت مقرفصًا فوق السَّرير خلفها، وكانت تنشج بصمت. وبعد مدَّة، التفتتْ ناحيتي، فرأيتُ وجهها المُحتقن وعينيها المحمرَّتين من البكاء. مسحتْ على رأسي بيدها وقالت:

ـ نَمْ يا حبيبي. نَمْ. لا تعبأْ بي. سأنام حالما أنهي سيجارتي.

فتمدَّدتُ في السَّرير محاولًا النومَ، وطال مكوثها أكثرَ من ساعة، قبل أن تنهض وتطفئَ الضوء وتتمدَّد إلى جانبي، فأغمضت عينيَّ متظاهرًا بالنوم، لكنَّها أسندت رأسها إلى كوعها وراحت تمسح وجهي ورأسي، ثمَّ قبَّلتني على شفتيَّ:

ـ أنتَ لست نائمًا، أليس كذلك؟ تتظاهر بالنوم لتهرب من مواجهتي، يا صغيري؟ حسنًا، اسمعْ. هل تريد أن تتزوَّج؟ قل لي. لا تستحِ منِّي. هل تريد أن تتزوَّج؟

فاستدرتُ بجسدي إلى الناحية الأخرى كي أتجنَّب مواجهتها:

ـ ماذا تقولين، يا أمّي؟. هل جُننتِ؟

ـ ماذا أفعل؟ أنت تعرفني. لن أسمح بالزّنا في هذا المنزل، حتّى لو كان لأجلك. قل لي ما هو الحلّ إذن؟

ـ أنا لا أرغب في أيّ فتاة يا أمّي. ألا تفهمين. أنتِ فقط.

ـ اصمت. ويحك. لا أريد أن أسمعها. أتفهم؟ لا تَقُلْها أبدًا.

صمتت برهة، قبل أن تُردف، في رقّة، هذه المرّة:

ـ أتعرف؟ ما كان ينبغي لي أن أعاملك كطفل إلى الأبد. كان يجب أن أدرك أنّك كبرت وأصبحت رجلًا، ولك متطلباتُك ورغباتك. يا لسذاجتي، وأنا التي كنت أعذّبك بقبحي وعدم تحفُّظي أمامك. لكن، تعالَ هنا أيُها الوغد.

وجزّتني ناحيتها عنوةً وأنبتت نظراتها في عينَي:

ـ هل أنا مثيرة إلى هذا الحدّ؟

أطلتُ النظر إلى عينيها البنّيتين العميقتين وبشرتها النحاسيّة التي بدت مضيئة في تلك اللّحظة:

ـ ألَم تدركي ذلك. قولي إنّك لا تدركين ذلك! الجميع يعرف أنّك مثيرة للغاية. ألم تَرَي الرّجال كلّ ليلة يهيمون على وجوههم مأسورين برقصك وجمالكِ؟ لا تقولي لي إنّك لست مثيرة.

ضحكت بخفوت وصفعتني، في رقّة، على خدّي:

ـ يا لوقاحتك. ماذا تقول أنت؟ ما زلتَ صغيرًا على مثل هذا الكلام.

ثمّ صمتت برهة ونظرت إلى سقف الغرفة قبل أن تُردف:

ـ حسنًا، حتّى لو كان هذا صحيحًا، فما كان يُفترض بي أن أثيرك أنت بالذات!!

ـ لِمَ؟ هل لأنّني...

وضعت سبّابتها على شفتيّ لأصمت وهمست:

ـ أشششششش. ويحك. إنّك تدهشني بجرأتك أيُها الفاجر. كفى. انتهينا الآن. نَم.

ثمّ راحت تفرك فروة رأسي بأصابعها الرّقيقة مدّةً خَلّتها الزمانَ كلّه، وأسكرني العطرُ المنبعث من نهديها العاجيّين ورقبتها الطويلة، حتّى

غفوتُ.

✺ ✺ ✺

كان البيت الذي يقع في الطرف القصي من المدينة، آخرَ البيوت عند تخوم بستان عبود الكبير، حيث المساحاتُ الشاسعة من غابات النخيل، وكان يتوسّطه فناءٌ كبير وحديقةٌ صغيرة، وتتقاطع في فضائه قلائدُ المصابيح. وفي عمق الباحة، حيث عريشةُ العنب الكثيفة، ثمّة باب صغير يؤدي إلى البستان الممتد خلف البيت، وكان بمثابة البوّابة التي تطلّ على الخارج، حيث ظلالُ النّخيل الكثيفةُ والباردةُ في النهار، والظلمةُ المطبقةُ في اللّيل. وهو باب شبه سرّيّ، غير الباب الرئيس المطلّ على الشارع من الجهة الأماميّة. وعدا ليالي الجُمعات التي تنعقد فيها حلقةُ الرّقص والغناء، كانت النهارات تمضي مسترخيةً وهادئة، مع بعض الاستثناءات، إذ تنعقد ليلًا في بعض الأحيان جلساتُ سَمَر على نطاق ضيّق في البستان، تقتصر على بعض المقرّبين، عندما يُشعل «صُمد» كانونه الطينيّ ويضع دلّة القهوة العربيّة وإبريقَ الشاي الكبيرَ. وغالبًا ما تتصدّر الجلسةَ جدّتي «عجيبةُ» وهي تتّكئ على نضد من الوسائد الملوّنة وتدخّن النرجيلة، بينما يجلس حولها أصدقاؤها، زيدانُ الحوذيّ، الأميّ الذي يتحدّث طوال الوقت عن الرأسماليّة والاستعمار، وعن زوجته التي ماتت في أثناء ولادتها ابنتَه الوحيدةَ عفافَ، الشابّةَ المتمرّدة التي طلب منّي مساعدتها في مراجعة الدروس، والدكتورُ رياض الذي يقفل عيادته في المساء ويأتي حاملًا كيسَ الفاكهة والخيار واللّبن، وسيّد محسن، رجلُ الدّين المعمَّم، والذي يعمل إمامًا لأحد الجوامع في النهار، و«صُمد» العجوزُ طبعًا، والذي لا يكاد يجلس، ويظلّ متنقّلًا بين الكانون وعريشة العنب، مرّةً يجلب الحطب، ومرّةً بعضَ الأقداح. وفي بعض الأحيان، تحضر «شفقة» و«نعيم»، الفتاتان اللّتان تعزفان على العود وترقصان «الهيوة» بطريقة ساحرة. وفي حالات نادرة، تأتي ياقوتُ نفسُها لتسلّم على الحاضرين، فيقف الجميع احتفاءً بها، وينحني الدكتور رياض ليقبّل يدها بطريقة أرستقراطيّة، بينما تطلق ضحكتها الرنّانة بانتشاء، ويخبّئ «صُمد» أقداح العَرَق الذي يحتسيه في الغالب الدكتور رياض وسيّد محسن وزيدان الحوذيّ، محاذرًا طلّة ياقوتَ على جلستهم. لكنّ، ما كان الأمر ليخفى عليها في الواقع، فهي تعرف الرّائحة وتلحظ النشوة على وجوههم، ولاسيّما عندما يتوسّلونها لتجلس بينهم وتُطربَهم بصوتها الشجيّ فتعتذر بطريقة ناعمة. وأحيانًا، تتركهم وتتوغّل في البستان، فتسارع «نعيم» في إحضار الفانوس لتضيء لها الدرب، لكنّها تطلب منها العودة بعد أن تأخذ الفانوس من يدها وتعطيه لي. وعندما نبتعد مسافة كافية عن الآخرين، تجلس قرب إحدى السواقي وتطلب منّي الجلوس إلى جانبها، وتصغي إلى أصوات اللّيل بخشوع. ومن

دون أن تلتفت ناحيتي، تسألني بهمس:

ـ هل تسمع؟

فأصيخ السمع بكلّ جوارحي، وأتخيّل سماع أصوات بهيمة ومكتومة تتداخل مع نعيق بوم أو تململات طائر ما في قلب نخلة فوقنا.

ـ أسمع ماذا؟

ـ أصواتَ حفيف الأرواح الهائمة من حولنا. ألا تسمعها؟!

فتجفل روحي ويزداد الوجيب في صدري، وأنا أصغي محاولًا التقاط تلك الأصوات التي تتحدَّث عنها من دون جدوى.

ـ أيُّ أرواح هائمة؟

ـ الأرواح المُلتاعة، يا حبيبي؛ تلك التي تبقى هائمة في المكان ولا تجد سلامها، والتي تبقى مأسورة ولا تصعد إلى السَّماء حتَّى تقضي حاجتها.

ـ إنَّك تخيفينني بكلامك هذا. ماذا تقصدين؟

ـ هل تتذكّر رُقيَّة؟ تلك الفتاة التي نبذتُها وطردتها من المنزل قبل أشهر حين رأيت في عينيها اللَّهفة عليك؟

ـ نعم، أتذكَّرها. ما بها؟

ـ لقد ألقت بنفسها في النهر وماتت منتحرة. لم أخبرك وقتها كي لا أقلقك.

شعرتُ بقشعريرة مفاجئة وانقباض في صدري، وأنا أسمع كلام ياقوت، وزاد جفولي حين خُيِّل إليَّ أنَّني ألمح ما يشبه الغزالة الصغيرة في عمق الظُّلْمة تتطلَّع إليَّ بعينين حزينتين، فحجبت ضوء الفانوس الملقى أمامنا على الأرض محاولًا التأكُّدَ، وتنبَّهث ياقوت لقلقي:

ـ ماذا هناك؟ هل ترى شيئًا، يا حبيبي؟

ـ لا أدري. خُيِّل إليَّ للحظة أنَّ ثمَّة غزالة تقف في عمق البستان وتتطلَّع بحزن.

ـ آآآه، يا إلهي. تلك الغزالة ثانية. لطالما حلمتُ بها تقف بعيدًا وتتوسَّلني. نظراتها الحزينة تلك لا يمكن أن تفارق مخيِّلتي. ويحي. ماذا فعلت بالبنيَّة. كيف أكفّر عن ذنبي. كيف أجعل روحها الهائمة تغادر بسلام. أخاف عليك، يا عزيزي. لن أسامح نفسي لو حدث لك شيء.

ـ لا تُكبّري الموضوع. إنَّها مجرَّد تخيُّلات ليس إلّا.

ـ لا، يا عزيزي. لا تستهنْ بالأمر. أعرف أرواح النّساء عندما يتعلّقن برجل ما. يبقى عالقًا في شغاف أرواحهن حتّى بعد أن يمتن. صدّقني. لقد خبرت هذا الشعور.

سادت فترة صمت موجعٍ ونحن نتطلّع إلى عمق الظلمة المنتشرة حولنا، حتّى سمعنا حركة خفيفة خلفنا، فاستدرنا بقلق. كانت «نعيم» تقترب متردّدة من جهة المنزل.

ـ قلقت عليكما. لقد أطلتما المكوث هنا. قلت ربّما تحتاجان إلى شيء.

وقفت ياقوت ونفضت عجيزتها من التراب وعادت قافلةً ناحية المنزل، بينما ظلّت «نعيمُ» واقفة تترقّبني. وحين صرت في موازاتها، همست قائلة.

ـ هل حدث شيء؟ أراك قَلِقًا علاوي.

ـ لا شيء. مجرّد تخيُلات ليس إلّا.

ـ تخيُلات؟! ماذا هناك؟ أخبرني. لا تَقُلْ إنّك رأيت الغزالة أنت الآخر؟

فوجئت بتعليقها واعترتني الدّهشةُ. كيف عرفت بأمر الغزالة.

ـ هل رأيتِها؟

ـ نعم، غالبًا ما أراها تقف هناك حزينةً باكية. حاولت أكثر من مرّة استدراجها لأعتني بها، لكنّها كانت تفرّ مذعورة في كلّ مرّة. هل تعيش في بستان عبود غزلان يا ترى؟

ـ لا أدري في الواقع. ربّما لا يعدو الأمرُ مجرّدَ تخيُلات فحسب.

عدت أدراجي إلى المنزل. وحين مررت قرب «نعيم» أمسكث بيدي لبرهة ونظرث إلى عينَيّ. كانت ملامحها في ضوء الفانوس تبدو جميلة للغاية، وبشرتُها السّمراء مضيئةً، وعيناها الحوراوان صافيتين. كانت طويلة ورشيقة بوجه بيضاويّ صغير وشعر مملّس طويل، تجمعه على جانب صدرها، وشفتاها كانتا منفرجتين وشهيّتين، تشبهان حبّتي الكرز. وفي اللّحظة التي هممتُ بتقبيلها تناهى إلينا صوت ياقوتَ من بعيد:

ـ علاوي... «نعيم». أين أنتما؟ هيا تعالا.

ارتبكث «نعيم» بشدّة، وخطفتِ الفانوس من يدي وراحت تنير لي الدرب بخطى متعثرة. كانت نار الكانون قد خبت وجدّتي «عجيبة»

غادرت جلستها ولم يبقَ سوى زيدان الحوذيّ والدكتور رياض وسيّد محسن، وقد تعتعهم السُكْرُ. وما إن وصلنا حتّى نهض الجميع مغادرين، واعتمر سيّد محسن عمامته قبل أن ينظر إليّ مبتسمًا:

ـ شكو عليك علاوي. عايش بنص النعيم.

ثمَّ مدَّ يده محاولًا لمس صدر «نعيم»، لكنَّها تراجعت خائفة ووقفت خلفي. ومن بعيد في الظَّلْمة، جاءنا صوت الدكتور رياض مودعًا:

ـ تصبحون على خير، أحبائي.

وراح «صُمد» يجمع بقايا الكؤوس والأطباق.

✺ ✺ ✺

مرّ الصيف الذي أعقب دخول القوات العراقيّة الكويت مقلقًا ومنذرًا بالشؤم، على الرّغم من بحبوحة الاسترخاء الذي تمتّعتُ به، ولاسيّما تلك الأوقاتُ المسترخية التي كنت أمضيها في البستان مع عفاف ابنة زيدان الحوذيّ، ونحن نقرأ معًا استعدادًا لعامنا الدراسيّ الأوّل في الجامعة في بغداد، بين صعود النّخل لجني بعض الثّمر الطازج لها، ومناقشتنا العقيمة لكتيّب «ما العمل» الذي صدعت رأسي به، بينما كانت ياقوتُ تحضّر لنا اللّبن المثلّج بنفسها، وتجلس معنا على حصيرة الخوص، وتداعبنا لتتأكّد من جدّيّتنا في القراءة وعدم تمضية الوقت في المناقشات السياسيّة العقيمة بالنسبة إليها. وكان تساقط حبّات الثّمر الناضجة من حولنا يحيل المكان إلى مخاضة من الدّبق الذي يجلب أسراب النمل وبعضَ فراشات الحقل، بينما يبعث رفيفُ أجنحة البلابل وتغريدُها الشجيّ في قلب البستان شعورًا طاغيًا بالعزلة والاسترخاء، لا يبدّده سوى ضحكات عفاف حين تأمرني بفتح فمي لترمي حبّة تمر فيه من بعيد، فتخطئ الهدف أو تتعمّد أن تُخطئ. ولم تكن، بالنسبة إليّ، حتّى اللّحظة على الأقلّ، امرأةً ناضجة أو شابّةً مثيرة، على الرّغم من جمال جسدها الصغير، والسّحرِ المتدفّق من عينيها، وعفويّتِها العجيبة. وكانت، بالنسبة إليّ، أقرب إلى الصديقة التي اعتدت على حضورها، فلم يكن عطرها الذائب حين تقترب منّي ليثيرني أكثر ممّا يشدّني إليها كمخلوق غريب ارتبط حضوره بمكوّنات البستان الأخرى، كالبلابل والفراشات وأفاعي أم سليمان وغيرها، حتّى عندما تقضم تمرة طريّة وتُقدّم إليّ نصفَها الآخر مُندًى برضابها. وما إن انتهى الصيف أو كاد، حتّى توجب علينا السفرُ إلى بغداد لإنجاز أوراق تسجيلنا في الجامعة هناك، هي في كلّيّة الحقوق، وأنا في كلّيّة الآداب، قسم اللّغة الإنكليزيّة. لم أعتد على صخب الجامعة الكبيرة وتشابك العلاقات فيها أوّلَ الأمر، في حين انغمرت عفاف، منذ اليوم الأوّل، بالنّشاطات الطلّابيّة والسياسيّة، وتحوّلتْ، بالنسبة إليها، إلى مجرّد ابن مدينة قلّما تلتقيه مصادفة، أحيانًا في النادي أو قرب كشك سندويشات الفلافل، تحيط بها مجموعةٌ من الطالبات والطلّاب المعجبين بحيويّتها وتدفّق الحماسة والشباب في جسدها الصغير، فتتركهم يمضون وتسحبني جانبًا:

ـ أين أنتِ يا روح أمّك؟

ـ أنا موجود. أنتِ منشغلة دائمًا بنشاطاتك التي لا تنتهي.

ـ أيهون عليك تركي غاطسةً بهذه الطريقة؟

ـ ماذا أفعل؟ لا أستطيع أن أحرمك شيئًا تحبّينه.

ـ يا لك من استسلاميّ وانهزاميّ.

ـ هذا ما أحصّله منكِ في الواقع. لا شيء سوى اللّوم والسخريّة.

تقترب منّي حتّى تُلهب أنفاسُها وجهي ورقبتي:

ـ من أيّ طينة خُلقت أنت؟

فأنظر إلى عينيها العميقتين، وألمح خفق جفنيها نتيجة الانفعال، فأحاول تغيير الموضوع:

ـ هل تأقلمتِ مع الفتيات في القسم الداخليّ؟

ـ لا، معظمهن فارغات وخاويات الرؤوس، لا همّ لهنّ سوى إقامة العلاقات مع الشُّبّان.

نادتها مجموعة الطلبة والطالبات من بعيد لتلتحق بهم، فلبّت النداء متعجّلة قبل أن تستدير ناحيتي وتطلب منّي مقابلتها غدًا في قاعة العروض المسرحية.

كانت الأوضاع المضطربة قد حوّلت الحياة في بغداد المسترخية بطبعها إلى مخاضة من الجنود وعربات النقل العسكريّة والفوضى، وكانت الأنباء الواردة من الكويت، حيث يوجد أكثر من ربع مليون جنديّ عراقيّ، لا تبشّر بالخير بعد اشتداد القصف الجويّ الأميركيّ والجيوش المتحالفة معه، وكان معظم الناس ناقمين على تلك المغامرة التي أقدم عليها صدام حسين، وما زال العراق لم يتعافَ تمامًا من حرب السنوات الثماني.

لم تَغتَذ ياقوتُ على غيابي وسفري المتكرّر إلى بغداد للدّراسة في الجامعة، ولم تتردّد في المجيء لزيارتي عندما أتأخّر. وكان أكثرُ ما يقلقها تلك العلاقةَ التي نشأت بيني وبين عفاف ابنة زيدان الحوذيّ، ليس بسبب جمالها وبشرتها البيضاء فقط، بل بسبب أفكارها الثوريّة المتطرّفة وجرأتها. وحين تفاقم القصف الجويّ على قطعات الجيش العراقيّ المرابطة في الكويت، بدأت ملامح المعركة غير المتكافئة تتجسّد، ثمّ زاد أمر الانسحاب المتأخّر الطّينَ بلّةً، فتدفق مئات آلاف المقاتلين المنهَكين في عرباتهم نصف المُعطّبة على طريق صفوان بطريقة عشوائيّة، ليرتكب الأميركان أبشع جريمة حرب في التاريخ عندما راحوا يقصفون تلك الحشود المنسحبة، ويقتلون مئات آلاف الجنود حرقًا في عرباتهم. وعندما وصلت طلائع الجيش المُنهزم إلى مدينة البصرة، وجّه أحد الضبّاط الناقمين مدفع دبابته إلى جداريّة كبيرة لصدام حسين كانت تتوسّط

ساحة سعد، وحولها إلى ركام. وكانت تلك القذيفة بمثابة الشرارة التي أطلقت أحداث الانتفاضة الكبرى ضدّ النظام في أغلب مدن العراق. وانقطع نسغُ الحياة في بغداد تمامًا، وتقطَّعتِ الطُرُق الخارجيَّة التي تربطها بمحافظات الجنوب، فقرَّرنا، أنا وعفاف، العودةَ سريعًا إلى مدينتا قبل أن تتفاقم الأوضاع. وحين وصلت أحداث الانتفاضة إلى الناصريَّة المتململة والمتأهِّبة أصلًا للثورة ضدّ النظام، قادت عفاف مجموعة من الشبّان المتحمِّسين، واقتحموا مبنى الأمن، وأطلقوا سراح السجناء الذين كانوا محتجَزين هناك، ثمَّ اتَّجهت صوب مبنى المحافظة الذي هرب منه الحرّاس، ودهنت جداريَّة كبيرة لصدَّام حسين بالصبغ الأسود، وكتبت فوقها عبارة «لا ديكتاتوريَّة بعد اليوم». كانت تلك أيَّامًا جامحة وملتهبة بالحماسة. وكانت ياقوت تحتجزني في المنزل وتمنعني من الخروج خوفًا من تورُّطي في الأحداث. وكانت عفاف زيدان تتَّهمني بالتخاذل والجبن حينما تصادفني.

ـ ابقَ لائذًا في حضن أمِّك يا ابن ياقوت، بينما نحن نصنع التاريخ.

وكان الأمر يؤذيني ويُضعف ثقتي بنفسي في الحقيقة. وكنت ألوم ياقوت على مبالغتها في الحرص عليّ ومعاملتي كطفل قاصر أو أيقونة تخاف عليها من الكسر.

ـ اصمت. هل تريد أن أصاب بالجنون لو حدث لك شيء؟ ألَم تسمع ما قاله «صُمد»؟

ـ وماذا قال هذا المعتوه الخَرِف؟

ـ لا تتكلَّم عليه بهذه الطريقة، يا حبيبي. هو بمثابة جدّك الذي يحبُّك ويخاف عليك.

ـ لكن، ماذا قال لكِ ليخوِّفكِ. أعرف خزعبلاته ورُقَمه الطينيَّةَ التي يتحدَّث عنها طوال الوقت. إنَّها مجرَّد توهُّمات. هل تصدِّقين أنَّه يمتلك رُقَمًا تتحدَّث عمَّا يجري في هذا العالم.

ـ لا أدري، يا حبيبي. لكنَّني أصدِّقه. ففي كلّ مرَّة يصدق بتنبؤاته. ألم يخبرك كيف ستقمع الحكومة تلك الفوضى التي تسمُّونها انتفاضة؟ ألم يتحدَّث عن مئات الجثث التي ستملأ الشوارع لاحقًا؟ ما بك؟! أنت روحي ونور عينيّ اللَّتين أرى بهما الدُنيا، فلا تُفجعني بك، يا حبيبي. أرجوك، بل أتوسَّل إليك، اتركهم يقولوا عنك ما يقولون. المهمّ أن تنجو من هذه المحرقة الوشيكة.

انكبَّت ياقوت، في قمَّة جزعها وخوفها، على قدمَيّ لتقبّلهما، فتراجعتُ بجفول ورفعتُها عن الأرض. وما إن أصبح وجهها في موازاة وجهي، حتَّى راحت تنظر إليَّ بعينين دامعتين، ثمَّ أمسكت وجهي بكلتا يديها، وراحت تقبّلني على جبيني وأنفي وخدَيّ وفمي، وهي تقول:

ـ يا حبيبي. يا روحي أنت. ارحمْ لهفتي وقلقي عليك. لتكن في قلبك رحمةٌ وتنقذ قلبي الذي يعتصره الألم واللَّهفة.

مسحتُ دموعها واحتضنتُها بقوَّة، بينما استسلمتْ لموجة عارمة من البكاء الذي أجفل روحي.

ـ اهدئي يا حبيبتي. اهدئي أرجوك. لا تعذّبي روحي بنحيبك هذا. ها أنا أمامك وفي حضنك. ما الذي تغيَّر؟

حملتها بين ذراعيّ وسجّيتها على السَّرير، فتشبَّثت بي وجرَّتني فوقها ودفنت وجهها في صدري، ورحتُ أمسح على رأسها وعينيها حتَّى هدأت ونامت، فخرجت إلى الباحة وشاهدت «نعيم» و«شمَة» تتضاحكان وتأكلان العنب، وما إن رأتاني حتَّى أشارتا إليَّ بالاقتراب، لكنَّني تردَّدت ووقفت جافلًا منتصف الباحة، فنادتني «نعيم».

ـ اقترب. ما بك؟ نحن لا نعضّ.

وحين اقتربت منهما، همستْ متسائلة:

ـ هل نامت ياقوت؟

ـ نعم. أنا قَلِقٌ عليها في الحقيقة.

ـ لِمَ؟ بسبب خوفها عليك؟ لها الحقّ. ستصاب بالجنون لو حدث لك مكروه. كلُّنا سنصاب بالجنون في الحقيقة. لا أتخيَّل بيت السودان المظلم من دون مصباحه المنير. ما لك وما يجري في الخارج من جنون.

ـ لا أدري. أشعر كما لو كنت ولدًا صغيرًا يخاف عليّ الجميع. لقد تجاوزت الحادية والعشرين وأنا طالب في الجامعة الآن. أشعر بالعار لعدم مشاركتي رفاقي في الانتفاضة.

ـ وهل تسمي هذه انتفاضة؟ إنَّها فوضى عارمة، ولا بدّ من أن تعود الحكومة لتكتسح المدينة، وستحدث بعد ذلك المجازرُ. ألم تسمعْ ما قاله «صُمد»؟

ـ يا لـ «صُمد» هذا وتنبُّؤاته البائسة. أين هو الآن؟ هل رأيتماه؟

ـ لا. لا شكّ في أنّه فوق السطح يلهو بطيوره.

فوق السطح، حدّثني «صُمد» عمّا أنبأته به الرّقُمُ التي لا تكذب، وراح يخبُرني عن أحداث ستجري، وأن الجيش سيعود ليدخل المدينة وستملأ الجثثُ الشوارعَ، ولن يُسمح لأحد بانتشالها. ثمّ حدّثني عن العماليق الذين سينزلون في أور، وكيف ستنقلب الأحوال من حالٍ إلى حال، ويكثر القتل وتعمّ الفوضى، ويخرج الأراذل من تحت الأرض ليقيموا شرائعهم السّوداء فوقها. كان يتحدّث بقناعة تامّة لم تُتح لي مناقشته، وكنت ساهمًا أتخيّل تلك الأحداث التي يصفها كما لو كان عاشها. وكان يتحسّس طيوره بيديه من دون أن يراها، وحين نظرت إلى عينيه هالَني لونُهما الرّماديُّ المُنطفِئ، كما لو كان النور قد غادرهما منذ زمن طويل. وتساءلت في سرّي، هل هو أعمى، أم كليلُ البصر يا ترى؟ وكيف لم أنتبه طوالَ تلك السنوات. وحين سألته عن لون فرخ الحمام الصغير الذي بيده، أجابني، من دون تردُّد، بأنّه أحمر، وأنّ ريشَ قَوادمه أبيضُ، وهو من نسل الأورفلي القلّاب، فهالَتني معلوماتُه تلك، وأدركتُ أنّه يتمتّع بقدرة فائقة على تحديد الأشكال والألوان بمجرّد سماعها أو لمسها، وقرّرت أن أسأل ياقوتَ لاحقًا عن حقيقته. وبينما نحن كذلك، سمعنا هرجًا وَجلَبةً وطَرقًا متواليًا على باب المنزل، فركضنا مشدوهين ونزلنا السلّم بتعثُّر. كانت «نعيم» و«شمّة» قد سبقتانا وفتحتا الباب، وهالَني منظر الدكتور رياض وهو مُدمًّى وقد ملأت الكدماتُ وجهَه وسربله الدمُ، ومن حوله مجموعةٌ من الشباب الذين يضعون خرقًا حمرًا على سواعدهم. كانوا يحملون السواطير والعصيّ محاولين النّيلَ منه، فحاولت الخروج لحمايته، لكن «نعيم» و«شمّة» تشبّثتا بي بقوّة وحالتا دون خروجي، فخرج لهم «صُمد» شاهرًا عصًا من جزيد كانت بيده، وراح يلوّح بوجوههم وهو يصيح:

ـ اتّقوا اللّه بالرّجل المسكين. ماذا فعل لكم أيُّها الأوغاد.

فتعالت الأصوات «بعثيّ... بعثيّ»، وعمّ الهرج والتدافع. وبينما هم كذلك، رأيت زيدان الحوذيّ راكضًا في اتّجاههم، حاملًا بندقية كلاشنكوف صوّبها إلى الأعلى، وأطلق بضع رصاصات في الهواء، فتراجع الحشد وأدخل «صُمد» الدكتور رياض إلى المنزل وأغلق الباب، وسمعنا زيدان الحوذيّ يعنّفهم ويحلف لهم بأغلظ الأيمان إنّ الدكتور رياض ليس بعثيًّا، وإنّه يعرفه منذ سنوات. وبعد شدّ وجذب، انسحب الحشد من أمام بيتنا وتفرّق في الطُّرقات المجاورة. كان الدكتور رياض رجلًا في السّبعين من العمر، ذا أخلاق رفيعة وأدب جمّ، وهو قارئ نهم للكتب. سمعت أنّه جاء

إلى الناصريَّة من مدينته الأصليَّة هيت أوائل الستِّينيَّات في أعقاب ثورة ١٤ تموز، وهو ذو ميول قوميَّة، ومعجَب كثيرًا بجمال عبد الناصر، ولطالما تغنَّى بالوحدة العربيَّة. وكان ناقمًا على نظام الحكم البعثيّ، وهو أعزب ولم يتزوَّج، وثمَّة إشاعات كثيرة تدور عنه، منها أنَّه كان يعالج الفقراء مجّانًا، ويحبّ الموسيقى والطرب، وهو من الزبائن الدائمين الذين يحضرون حلقات الرَّقص والغناء أيَّام الجُمعات، ويحتسي العَرَق بكثرة، ويأسره رقص ياقوت وبحَّةُ صوتها الشَّجيّ. وغالبًا ما يطلب منها أن تغنِّي له أغنية «يا هلا باللي لفاني يا هلا به.. بعدد دقات قلبي في غيابه». حتَّى أنا كنت معجَبًا بهذه الأغنية في الحقيقة، ولاسيَّما عندما تغنيها ياقوت بطريقتها الخاصة، وجدَّتي «عجيبةُ» تنقر الدفَّ، بينما تتمايل «نعيم» و«شفة» على النغم الراقص وهما ترتديان ثوب الهاشمي الملوَّنَ والفضفاضَ، بطريقة تسلب القلوب.

مدَّدوا الدكتور رياض في الحوش تحت عريشة العنب، وراحت الفتيات يغسلن جروحه، وخلعت جدَّتي «عجيبةُ» قميصه الممتلئَ دمًا وعصبتْ رأسه، لكنَّ الدَّم ظلَّ ينزف بتواصل. وعندما خرجت ياقوت مرتدية بدلة رياضيَّة خفيفة، طلبت من الجميع الابتعاد عنه، ثمَّ جثت قربه ومسحتْ وجهه بكفِّها، وهي تبكي، قبل أن تنظر إلى الفتيات المنذهلات وتقول:

ـ الجرح عميق جدًا. سيظلّ ينزف حتَّى يموت بين أيدينا. لا بد من تقطيبه.

فنظرت الفتياتُ، بعضُهن إلى بعض، مندهشات:

ـ ومن يقطبه يا عمَّتي؟

ـ لا أدري. ربَّما علينا نقله إلى المستشفى.

لكن «صُمد» رفض الفكرة قائلًا:

ـ لا. سيقطَعه الرعاع في الشوارع إربًا إذا ما أخرجناه ثانية. دعيني أطلب من زيدان الحوذيّ أن يجلب لنا ريسان المضمَدَ.

ظلَّ الدكتور رياض ينزف طوال الظهيرة، والفتيات ما فتئن يغيِّرن له الخِرَق في محاولة لوقف النزف من دون جدوى. كان وجهه مصفرًا وقواه منهارةً تمامًا، ولم يقوَ على الحركة أو النطق، حتَّى وصل ريسان المضمَدُ أخيرًا وطلب ماءً ساخنًا، ثم طهَّر الجرح وراح يقطبه بإبرة كبيرة وخيط من النايلون الرفيع، قبل أن يضع فوقه ضمَّادة سميكة ويلفَّ رأسه

ويغسلَ يديه من الدم.

ـ الرجل لن يصمد. لقد فقد دماء كثيرة. لا بدّ من نقله لاحقًا إلى المستشفى لتعويض الدم الذي فقده ويوضَع له المغذي. ها أنا أخبركم لأخلي مسؤوليّتي.

نَقَدَتْه ياقوتُ مبلغًا من المال وطلبت منه عدم إخبار أحد بوجوده عندنا، فقبَل الرجل المال ووضعه على جبينه مرّتين، وخرج بعد أن أشار بيده إلى فمه علامةَ الكتمان.

كانت الأوضاع في الخارج تتدهور بسرعة، والأحداثُ تتفاقم بعد أن اختفى رجال الشرطة، وراحت المجاميع المسلّحةُ تجوب الشوارع بالسواطير والعصيّ وبعضِ البنادق التي غنمتها من مراكز الأمن، بينما استولى بعض الشبّان على السيّارات الحكوميّة وراحوا يجوبون بها مطلقين منبّهاتها بطريقة فوضويّة. وكان قلق ياقوت يزداد يومًا بعد يوم. وذاتَ ليلة، طلبت من «ضُمد» اصطحابي إلى موقع أور الأثريّ حيث يعمل، وأن نبقى هناك ولا نعود إلى البيت حتّى تنتهي هذه الفوضى، فقرّر التسلُّل ليلًا عبر بستان عبود، لكنّ ياقوت رفضت أن يصحبني مشيًا على الأقدام، وقالت إنّ المسافة بعيدة جدًا من هنا، ثمّ أرسلت بطلب زيدان الحوذيّ الذي جاء راكضًا. كان زيدان قد غنم بدوره شاحنة صغيرة من تلك التي يستخدمها رجال الشرطة، لكنّ خزان وقودها شبه فارغ، فوعده «ضُمد» بتزويده بالوقود حال وصولنا إلى الموقع. وهكذا، ودّعتُ ياقوتَ التي انخلع فؤادها لفراقي قبل أن تُمطرني بسيل من الوصايا. وعند طرف البستان عانقتني وقبّلتني، قبل أن تعود قافلةً إلى المنزل مع «نعيم» التي راحت تنير لها الدرب بضوء الفانوس الصغير.

راحت الشاحنة الصغيرة تتقافز في الطُرُق المملوءة بالحفر نتيجة الانفجارات، ولم يكن زيدان يجيد السّياقة جيّدًا. وقرب محطّة القطار أوقفتنا نقطة تفتيش، وراح بعض شباب الانتفاضة يتفرّسون في وجوهنا بعد أن سلّطوا علينا ضوء مصباح يدويّ صغير، وحين لمحوا الخِرقة الحمراء المربوطة على ذراع زيدان سمحوا لنا بالمرور وهم يهتفون بنزق: «حيّ اللّه المجاهدين... حيّ اللّه الأبطال». وشعرت بالدُوار، والحزن يُطبق قبضته على قلبي، وأنا أتذكّر دموع ياقوت وعطرها الذي لا يفارقها، كما لو كان عالقًا في أنفي طوال الأيّام التي سأمضيها في أور، فأغمضتُ عينَيّ ورحت أتخيّل تفصيلات جسدها المشدود، وابتسامتَها الآسرة، ودفءَ صدرها حين تحتضنني وتدفن رأسي وسطه بعد أن تحوّلت إلى ما

يشبه الإلهة المقدّسة بالنسبة إليّ. فهي أمّي وليست أمّي، وحبيبتي وليست حبيبتي، وملهمتي الغامضة وحارستي الأمينةُ وأسيرتي الملهوفةُ التي تأسرني بدورها. كانت تلك العلاقة الغامضة التي تجمعنا مبعثَ قلق وحيرة بالنسبة إليّ، فلا هي تفك أسري ولا هي تُطفئ ناري، ولا هي تسمح لي بإطفاء تلك النار التي باتت تأكل أحشائي وتمزّقني من الداخل. حتّى عندما أكون بعيدًا عنها، أشعر بسطوتها وحضورها، فأخلص لها الوعد ولا أدنو من أيّ امرأة غيرها ما دامت هذه رغبتها التي لم تفصح عنها صراحة يومًا، لكنّني كنت ألمسها بسلوكها ولهفتِها وَوَلَهِها وشغفها بي. وعندما أكون بعيدًا عنها أشعر بضعفي وتيهي وعدم قدرتي على تدبُّر أموري، فكيف سأمضي هذه الأيّامَ الطويلةَ والمملوءة بالقلق والخوف عليها، وكيف سأتمكّن من النوم بعيدًا عن حضنها الدافئ المعطّر؟ كان زيدان و«ضُمد» يتناقشان طولَ الطريق بشأن المصير الذي ستؤول إليه الانتفاضة، بينما كنت غارقًا في التفكير في ياقوت وحالها في تلك اللّحظات التي تبدو فيها كمن انتزعوا قلبها وأخذوه بعيدًا عنها وهي تنظر إليهم باستسلام وعجز تامّين. وكنت، طوال الوقت، أقبضُ على عين القلادة التي ألبستني إيّاها، وأتحسّس الحوافَّ الحادّة لسنّ الذئب المطوّق برقائق ذهبيّة.

فوجئتُ بالعزلة الثقيلة في أور النائية عن المدينة ولا يفكّر أحد في المجيء إليها في مثل هذه الأوقات، وبالظلمة المُطبقة على التلال الغامضة التي تضمّ رُفات الملوك السومريّين وأميراتهم وجواريهم وحرّاسهم وأسرارهم، وشعرت بوطأة التاريخ الثقيلة وغموضه. والأمر الذي زاد في قلقي وخوفي، أن «صُمد» لم يكن يملك منزلًا أو حجرة بالمعنى المعروف هنا، بل مجرّد شاخصة من القصب والطّين، ليس لها باب، ومشرّعةٍ على ليل الصّحراء البهيم، وهي تحوي حاجياته كلّها: فرشته التي ينام عليها، وبعضَ آنية معدنيّة، وجرّةُ ماء، وكانونًا يملأه الرماد، وإبريقَ شاي مسخّمًا. وسرعان ما أشعل النار ووضع الإبريق على جانب الكانون، ثمّ مدّ لي فرشته وطلب منّي أن أنام ريثما يقوم بجولة ليليّة في الموقع، فانخلع فؤادي من الخوف، واندهشتُ من عدم اكتراثه لما يدور حوله من مخاطر بدا كمن اعتاد عليها منذ سنوات طويلة، فهو يعمل هنا منذ كان ولدًا صغيرًا.

ـ لكن، ألا توجد ذئاب هنا؟ المكان منعزل تمامًا وبعيد عن المدينة، والظلمةُ مطبقة!

ـ حتّى لو وُجدت، فهي لا تجرؤ على الاقتراب من شاخصتي تلك. فأنا وهي على علاقة قديمة جدًا. لا تقلق، وحاولْ أن تنام قليلًا، فالفجر على وشك أن يبزغ، يا ولدي.

ـ لكنْ، كيف ترى طريقك في مثل هذه الظُّلمة؟ وممَّ تحرس الموقع؟

ـ من لصوص الآثار، يا ولدي. فهم يستغلون مثل أحداث الفوضى هذه لنبش القبور الملكيّة بحثًا عن الكنوز واللّقى الأثريّة التي لا تقدّر بثمن. نَمْ أنت، ولا تكترثْ لي. أعرف عملي، وقد اعتدت عليه حتّى قبل أن تأتي أنت إلى الدّنيا.

ـ لكنْ، لَمْ تخبرني. كيف ترى ما حولك؟

ـ قلت لك لا تقلق. من أصوات اللّيل أستطيع أن أميّز ما حولي، ومن رائحة الهواء أحدّد وجهتي. نَمْ، يا عزيزي.

غادر «صُمد» في جولته اللّيليّة المبهمة وتركني أكابد لوعة الخوف والعزلة في تلك الوهاد المخوّفة، ولم يغمض لي جفن في الحقيقة. وكلّما نعستُ وغفوتُ برهة تخيّلتُ الذّئاب تحيط بي وتهز في وجهي كاشفةً عن أنيابها الطويلة، فألتحف الغطاء وأنفخ في النار لأزيد توهجها. كان الفراش قاسيًا وغطِئًا ومفروشًا على الرّمل مباشرة، ورحت أتخيّل العقارب

والثعابين التي قد تخرج من جحورها بحثًا عن جسدي الطَّريّ، وتعجَّبت كيف يمضي «صُمد» أيَّامه ولياليه في تلك العزلة التي اعتاد عليها منذ أكثر من ستِّين سنة، كما يقول، ورحت أستعيد حكاياته عن أرواح الأجداد التي تطوف تلك الوهاد في اللَّيالي، وتخبره بالقِصص الغريبة، وتلك الرُّقُم الطينيَّة التي يخبئها وتُنبئه بالمستقبل، ثمَّ تذكَّرت غرابة أطواره وعماه، وشعرت بأنَّني ألقيت نفسي في متاهة مجهولة ومغامرة غير محمودة العواقب. لكنَّ ما كان يطمئنني هو معرفةُ ياقوت الجيِّدة بـ «صُمد» هذا، وثقتُها المطلقة به. ومع ذلك، لم أستطع النوم في ليلتي الأولى حتَّى بزغ الفجر، وتبدَّت كتلة الزقُّورة العملاقة في الأفق، وارتسمت مكوِّنات التلال في نصف العتمة، وداهمتني ريح الفجر الباردةُ، فتكوَّرتُ تحت الغطاء وغفوت، فحلمت بتلك الغزالة الصغيرة تقف على مقربة من الشاخصة تترقَّبني، وما زال الحزن يقطر من عينيها السَّوداوين الغامضتين، وبدتْ أكثر جرأة هذه المرَّة واقتربت منِّي، فلمحتُ في ضوء الكانون الخافت لونَ جلدها الذَّهبيّ، وسمعت صوت أنفاسها المتلاحقة، ثمَّ شعرتُ بخطمها الأسود يُمسِّدني بحنان. وحين صحوت، رأيت «صُمد» ينفخ في نار الكانون ليعدَ إبريق الشاي، ثمَّ فتح صرَّة صغيرة، وأخرج منها رغيفَي خبز ونشرهما قرب النار، فعدت إلى النوم ثانية بعد أن شعرتُ بالاطمئنان لوجوده قربي. وحين صحوت مرَّة ثانية رأيت الشمس تنثر أشعتها المبهرةَ فوق التلال المتناثرة، وثمَّة صينيَّةٌ صغيرة وضع عليها «صُمد» طعام الفطور ومضى إلى مكان ما، فحملتُ إبريق الماء وابتعدت عن الشاخصة لأقضي حاجتي وأغتسل، وهالني انتشارُ اليرابيع والعظايات الصغيرة التي راحت تتراكض مُتخاطفة من حولي، ولحظت طبيعة الأرض المملوءة بما يشبه الصَّدَف الأبيض وشظايا العظام أو هياكل عظمية صغيرة تشبه الأسماك المتحجِّرة. ومن بعيد، من جهة المدينة، تناهى إلى سمعي دويُّ الانفجارات وأزيزُ الرصاص. وتذكَّرت ياقوت في تلك اللَّحظة حين تصحو مكتئبة ولا تراني إلى جانبها، وشعرت بحزنها ولهفتها، وتذكَّرت نعومتها حين تستيقظ في الصَّباح، ورائحةَ جسدها المميَّزة والتي أدمنتُ عليها، فاغتسلت وعدت أدراجي إلى الشاخصة، وحاولت تناول الخبز والبيض المسلوق، لكنَّني لم أستطع، فاكتفيت بشرب قدح من الشاي الساخن الذي تركه «صُمد» يغلي في الإبريق فوق نار الكانون الخابية، وتناهت إلى سمعي أصواتُ طيور غريبة تشبه نعيق اللقالق، فخرجت متأمِّلًا الوهادَ من حولي، وهالَني منظر الزقُّورة العملاقة التي تنتصب وحدها وسط التلال التي يُفترض بها أن تكون مدينة أور القديمة وبقايا معابدها وشوارعها

المبلّطة بالقار، ولم ألمح أثرًا لـ «ضُمد» في تلك الناحية، فاستدرت إلى الجهة الأخرى خلف الشاخصة التي بدت مبنيّة من حصران القصب والطين، ولمحت فتحة صغيرة في الأرض تُفضي إلى سلّم حجري مثلّم يؤدّي بدوره إلى جوف مُظلم. وتلفتُّ حولي قَلِقًا، وقبل أن أطأ السُلّمة الأولى سمعتُ صوت «ضُمد» مناديًا:

ـ علاوي. ماذا تفعل عندك؟

ـ لا شيء. أتجوَّل في المكان فحسب.

ـ لماذا لم تتناول فطورك؟ ألا يعجبك البيض؟ يجب أن تعتاد على هذا الأكل هنا. لا أحد يعرف كم سيطول الأمر.

عدت أدراجي إلى الشاخصة حيث يقف ضُمد.

ـ ستعنّفني ياقوت ما لم تأكل جيّدًا.

ـ لا عليك. سأعتاد على الأمر مع مرور الوقت.

حمل «ضُمد» دلوًا بلاستيكيًا واتّجه صوب التّلال طالبًا منّي مرافقته.

ـ سنقوم بجولة على الموقع وأدلُّك على الفخاخ.

ـ أيُّ فخاخ؟

ـ الفخاخ التي أنصبها للأرانب البرّيّة وطيور الحجل. لو حالفنا الحظ فسنتعشى اللّيلةَ أرنبًا برّيًا أو حجلة سمينة.

كان «ضُمد» يسير متفحّصًا الأرضَ بعصاه وبدا يعرفها حجرة حجرة. كان يتحدّث عن أيّام ما، كان المكان يعجّ فيها بالسُياح الأجانب الذين يحضرون لزيارة بيت النبي إبراهيم، وكيف تعلّم الإنكليزيّة منهم عندما كان شابًا، وعن أغاثا كريستي التي زارت الموقع وأقامت به شهرًا كاملًا، وكيف كان يقلي لها الجراد الصحراويّ ويشربان النبيذ، وعن آلتها الطابعة الصغيرة التي كانت تصحبها أيّنما حلّت. لم أكن مصدّقًا تلك الحكايا في الحقيقة، فلطالما اعتقدت أنّه ذو خيال خصب، ويختلق القِصص غير المعقولة، وكانت تتملّكني رغبة عارمة في سؤاله عن تلك الرُقُم التي تخبره بالمستقبل، والتي لطالما صدع رؤوسَنا بها، لكنّ سيل حكاياته الغريبة لم ينقطع طُولَ الطريق حتّى وصلنا إلى فخّه الأوّل. كان عبارة عن حفرة صغيرة مموّهة بالقش، يعتليها غطاء خشبيّ تسنده عصا رفيعة، وفيه بعضُ حبّات من الحنطة، ما إن تقترب القبّرة أو طائر الحجل

لينقر الحَبَ، حتَّى يسقط الغطاء ويحصره في الحفرة. كان الفخّ الأوَّل فارغًا، فاتَّجهنا إلى الفخّ الثاني المنصوبِ في ظلّ نخلة باسقة ومنفردة وسط بقايا مستعمرة للقصب المتيبِّس، وسمعنا حركة مكتومة، وما إن اقتربنا حتَّى رأيت أرنبًا بريًّا عالقًا في الفخّ، كانت أرجله الخلفيَّة مُعلَّقة بكلّاب حديديّ صغير، وكان يجاهد للإفلات من دون جدوى، فأمسك «ضمد» بأذنيه الطويلتين وحرَّره من الفخّ، ثمَّ ربط أطرافه الأربعة بحبل رفيع، وكوَّمه في الدلو، ومضى متفحِّصًا بقية الفخاخ. وفي المساء، جاءت فتاة قرويَّة صغيرة وأحضرت معها بعض حليب الماعز وأقراصَ خبز ساخن. كانت تعرف «ضُمد» جيِّدًا، على ما يبدو، وأخرج لها الأخير كيسًا صغيرًا من السُكَّر وأعطاه إيَّاها، فأقفلت فَرِحة بعد أن رمقتني بنظرة استغراب ودهشة.

ـ إنَّها درَّة، يا ولدي. لو اعتليتَ تلك التلَّةَ هناك لرأيتَ بيتَ الشَّعر الذي نصبوه على مَبعَدَة من هنا.

ـ هل هم من الغَجَر، يا جدي؟

ـ لا. إنَّهم من البدو الرُّحل، يأتون إلى هذه النواحي من عمق الصحراء في الشتاء بحثًا عن الكمأ.

صحبني «ضمد»، قبل حلول الظلام، إلى ذلك السلَّم الحجريّ الذي يغور في الأرض بعد أن أعطاني مصباحًا يدويًّا، ورحنا ننزل الدرجات المثلَمة بحذر، حتَّى وصلنا إلى ما يشبه البيت القديم المدفون تحت الأرض، وفيه مجموعة من الحُجرات الصغيرة تملأها الهياكل العظميَّة وبعضُ الآنية الفخاريَّة. وقف «ضُمد» في المنتصف وسلَّط الضوء على أحد تلك الهياكل الصغيرة:

ـ هذه إنخيدوانا. هل سمعت بها من قبل.

نظرت إلى الهيكل العظميّ الذي تبعثرت أضلاعه وسط الحجارة، وانتابتني الرَّهبةُ والخوف. وبعد أن بلعت ريقي بصعوبة، قلت:

ـ لا، لم أسمع بها من قبل.

ـ ماذا يعلِّمونكم في الجامعة إذن؟ إنَّها كاهنة أور الكبرى وشاعرتُها العظيمة. كانت شابَّة عندما مات محبوبُها ومعشوقها وابن أخيها الملك نرام سين، فقرَّرت ترك المعبد والموت معه، مصطحبةً معها جميعَ خادماتها، بعد أن أحضرن بعض جرار الخمر والخبز وقيثارةً ودُفِنَّ معه ورحن يعزفن له ليالي طويلة كي لا يشعر بالوحشة في رحلته إلى العالم السفليّ. إلى

الآن، أسمع صوت الموسيقى في اللّيالي تنبعث من القبر. ألم تسمع شيئًا البارحة؟

كنت مندهشًا ومرتهبًا، والخوفُ يعقد لساني، وصرت أتلفَّتُ من حولي محاذرًا التعثُّرَ بتلك الهياكل المنتشرة حولنا، لكنَّ «صُمد» واصل حكايته العجيبة عن إنخيدوانا هذه، ثمَّ اتَّجه إلى عمق القبر حيث حفرةٌ حديثة، وأقعى مسلِّطًا الضوءَ داخلها:

ـ اقترب يا عزيزي. لا تَخَفْ. ما لك جفلت؟! سأطلعك على سرٍّ لم يطَّلع عليه أحد من قبل. اقترب.

ثمَّ جرَّني عنوة لأجثو قربه، وراح يزيل التراب عن ألواح آجريَّة مرصوفة، بعضها فوق بعض، بعناية فائقة، وأخرج فرشاة صغيرة وراح ينظِّفها ممَّا علق بها من تراب حتَّى برزت واضحةً وظهر ما عليها من كتابات مسماريَّة غريبة، راح يتحسَّسها بحذر كما لو كان يقرأها باللَّمس ويفكّ طلاسمها:

ـ هل تستطيع قراءتها يا جدّي؟

ـ طبعًا أستطيع. ألم أقل لك إنَّني عشت هنا منذ أكثر من ستِّين سنة؟ ما بك؟ ألا تصدِّق؟ منذ كان المرحوم طه باقر، عالِمُ السُومريَّات المعروفُ، يجوب تلك الأنحاء. هو الذي علَّمني قراءة الخطّ المسماريّ، لولا أنَّ نظري كبا في السنوات الأخيرة. لكنْ، لحسن الحظّ أنَّ الحروف ناتئة أو غائرة في الألواح على نحو يمكِّنني من تحسُّسها والاطِّلاع على معانيها.

ـ وماذا مكتوب فيها، يا تُرى؟ هل هي تلك الرُّقُم نفسُها التي تُنبئك بالمستقبل؟

لم يُجبني «صُمد»، وراح يتمتم ببعض العبارات السُومريَّة التي كان يتحسَّسها. كانت لغة غريبة وموصولة من دون توقُّف بين كلماتها الغريبة، وبدَتْ كما لو كانت تراتيلَ للهنود الحمر، أو طلاسمَ مبهمة. وكان اللَّوح الذي في الأعلى متماسكًا وواضحًا، بينما بدت الألواح الأخرى مُفتَّتةً أو مهترئة بفعل الزمان. وبعد أن أنهى «صُمد» قراءاته الغريبة، عاد وردم تلك الألواح بالتراب الذي ساواه بالأرض، ووضع فوقه حَجرة كبيرة وغادرنا القبر. وفي اللَّيل راح يقصُّ لي ما أطلعته عليه الألواح، وكيف أنَّها تحكي قصَّة ما يجري ولا تمنحه من الوقت سوى يوم واحد قبل وقوع الأحداث، وكيف تتفتَّت بسرعة إذا ما اخترق هذا الغرف ودفعه الفضول إلى الإيغال في المستقبل. وما كنت لأصدِّق ما يقصُّه في الحقيقة لولا أنَّني شاهدت تلك

الألواح بعينَي، وظلَّت الحكاية تؤرّقني طوال اللَّيل ولم أتمكّن من النوم، وبين الحين والآخر يُخيَّل إليّ سماعُ صوت القيثارة ينبعث من جهة قبر الكاهنة أنخيدوانا، ولا أدري إن كان حقيقة أم من وحي خيالي بعد أن زرع «ضُمد» تلك الحكاية في رأسي، حتَّى صحوت فجرًا وفوجئت بدرَّة البدويَّة الصَّغيرة تقف على مَبعَدَة من الشاخصة وتنكش الأرض بعصاها، وأمامها طبقٌ من الخوص مغطًّى بخرقة:

ـ جلبت لكما بعضَ الخبز الساخن. خفت أن تعبث به الطيور وأنتما نائمان.

تأمَّلتُ سحنتها الذَّهبيَّة الغريبة وشعرَها الأصفر المنفوش مثل هالة حول وجهها الصغير. تطلَّعتْ إليّ باستغراب قبل أن تبتسم ويظهر سنّ الذهب الصَّغيرُ الذي يشي بتلك الابتسامة الرَّائقة. وقبل أن أحدّثها، أقفلتْ عائدة وهي تطلق نداءً غريبًا على معزاتها المتفرّقة يتبعها كلبُها.

صحبني «ضُمد» في الظهيرة لنرتقي الزقّورة بحذر، متستّرين بجدرانها الآجريَّة السميكة بعد أن حذَّره المنتفضون، الذين سيطروا على القاعدة الجويَّة القريبة، من ارتقائها والتطلُّعِ إلى ما يجري هناك. لكن «ضمد» أقدم على المجازفة ليُريني ما تحدَّثت عنه الرُّقُم ليلة البارحة. ومن بعيد جنوبًا، رأيت مخابئ الطائرات، مثلَ سلاحف عملاقة، وبعضَ الشباب الفوضويّين يربطون بعض طائرات الميغ الروسيَّة بالحمير، ويجرُّونها في اتِّجاه المدينة بصخب بعد أن اعتلى بعضهم أجنحتها وقمراتها المحطَّمة، بينما كان «ضُمد» يستشرف الفضاء بعد أن وضع يده فوق عينيه الكابيتين، كما لو كان يترقَّب طائرة ما.

ـ انظر جيّدًا إلى السَّماء. هل ترى حركة ما أو مركبات غريبة؟

ـ ماذا تقصد يا جدّي؟ هل تتوقَّع وصول طائرة ما؟

ـ لا أدري. الألواح تتحدَّث عن عماليق سيهبطون في القاعدة من الفضاء قريبًا.

عدت إلى مراقبة الرِّجال في القاعدة البعيدة وأنا أسخر، في سرّي، من تنبؤات «ضُمد» الغريبة. وعندما استدرت إلى الناحية الشماليَّة متتبّعًا طائرًا ملوَّنًا بدا يحجل بغرابة، لمحتُ من بعيد بيتَ الشَّعر المنفرد تتفرَّق حوله بعض المعزَّات، وثمَّة جَمَل بارك وآخرُ منتصب يتطلَّع إلى الأفق.

ـ متى سقطت القاعدة بأيدي المنتفضين يا جدّي؟ وأين ذهب الطيَّارون والجنود؟

ـ فرُّوا جميعًا. ارتدوا ملابس مدنية، وفرُّوا تاركين كلَّ شيء وراءهم.

ـ لكنْ، لِمَ يحطمون الطائرات بهذه الطريقة؟

ـ كي لا يستخدمها صدَّام لاحقًا في قمعهم، على ما أعتقد.

ـ كان ينبغي لهم أن يكونوا أكثر وعيًا وتنظيمًا.

ـ أيُّ وعي، يا ولدي؟ ألم تسمع زيدان الحوذيّ ماذا قال؟!

ـ نعم، لقد انسحب وجماعته الشيوعيّين من الشوارع بعد أن اتَّخذت الأحداث منحًى طائفيًا بوحي من أحزاب تسلَّلت من إيران. ما كان عليهم أن يتركوا مصير الانتفاضة بهذه الطريقة. حتَّى عفاف، ابنته، انسحبت مع رفاقها. قالت إنَّها لا تريد أن يسجِّل التاريخ لطخة عار في مسيرتها. لكنَّها تعهَّدت بالمقاومة إن حاول النظام قمع الانتفاضة.

ـ لا أدري، يا ولدي. لطالما كنت بعيدًا عن السياسة، وما أراه من أحداث ما هو إلَّا مقدِّمة لكوارث مروِّعة ستحدث في العراق لن ينهض معافًى منها إلَّا بعد مرور عشرات السِّنين. دعك من هذه الفوضى، وتعالَ لأريك بعض الودائع النادرة، فأنا قد بلغت من العمر عتيًا، ولا أدري متى سأموت. على أحد ما معرفة مكانها.

وفوق رابية واسعة، راح ضُمد يبحث عن خندق شُقَّ في الأرض، ما إن سلكناه حتَّى أخذ يغور شيئًا فشيئًا، ثمَّ وجدنا نفسينا في سرداب تتوسَّطه دكَّةٌ حجريَّة عريضة، جثا عند كعبها وراح يقيس آجراتها بكفِّه. وبعد خمسة أشبار، حزَّ آجرة بارزة وطلب منِّي تسليط المصباح عليها. كان خلفها ما يشبه الخزنة المدعَّمة بألواح خشبيَّة، وفيها صرَّةٌ صغيرة من القماش أخرجها ووضعها فوق الدكَّة وراح يفتحها بحرص. كان فيها ما يشبه الخواتم القديمة والأختام، وقرصٌ مصنوع من المرمر الأصفر المعرَّق، وبعضُ ألواح الكتابة المسماريَّة الرقيقة. رفع أحد الخواتم بيده وسلَّط عليه الضوء.

ـ هذه بعض خواتم الكاهنة أناتوما، تحمل اسم إنخيدوانا ورسمَها وبعضَ قصائدها. لو كان الوضع طبيعيًا في البلد لسلَّمتها إلى دوائر الآثار، لكنَّهم الآن سيسرقونها في ظلِّ هذه الفوضى. هل تعدني بحفظ مكانها والسِّهر عليها عندما أموت؟

كنت متحيِّرًا، تتلبَّسني الدَّهشة وتُجفِل روحيَ الرَّهبةُ. تخيَّلت

«ضُمد» في تلك اللَّحظات كائنًا أسطوريًا خرج من الماضي السَحيق، وليس حقيقةً. تأمَّلت جمال الخواتم وقرص المرمر، وبدت لامعة متوهِّجة في نور المصباح بعد أن جلاها «ضُمد» وصقلها.

ـ ما بك سكتَّ؟ هل تعدني؟

ـ نعم، يا جدّي، أعدك. لكن ما اسم هذه التلَّة؟

ـ اسمها جيبار، وهي حيّ مقدَّس ومخصَّص لسكن الكهنة.

أعاد «ضُمد» كنزه الثمين إلى الصرَّة، وربطها بإحكام من جديد قبل أن يضعها في الخزانة الحجريَّة ويعيد الآجرة الكبيرة إلى مكانها، وخرجنا من السرداب، وكان اللَّيل في الخارج قد أرخى سدوله على الوهاد، وبدأت القبَرات بالنَّعيق، بينما طرَّزت النجومُ السَّماء السَّوداء من حولنا.

✺ ✺ ✺

قُمعت الانتفاضة العجيبة وقُتل مَن قُتل وهرب مَن هرب إلى خارج البلاد، وظلَّت مئات الجثث مرميةً في الشَّوارع ومكبَّاتِ الأزبال حتَّى تفسَّخت، واختفى سيِّد محسن أشهرًا، وتعافى جرحُ الدكتور رياض الذي ظلَّ تحت رعاية «نعيم» و«شقة»، وعدتُ إلى لوعتي في بيت السُّودان الذي أُضِفَت عليه الأحداثُ الأخيرة غموضًا، ولم يجرؤ أحد على إحياء ليالي الجُمعات في ظلّ تلك الأجواء الكئيبة؛ أجواءِ الموت الذي ملأ المدينة وأكل خيرة شبابها، ولم نكن نسمع سوى نواحِ الأمهات المفجوعات في اللَّيالي الموحشة. اختفت جلسات السَّمَر المتباعدةُ التي كانت تنعقد في البستان خلف بيتنا بعد أن فرَّ زيدان الحوذيّ إلى جهة مجهولة، وأثقل جرح الدكتور رياض روحَه المرحة، وحوَّله إلى عجوز كئيب يزرع الريحان في النهار، ويستمع إلى أخبار الإذاعات البعيدة في أثناء اللَّيل. وحده سيِّد محسن ظلَّ مواظبًا على زيارة بيت السُّودان، وحثّ الفتيات على معاودة الرَّقص والغناء، بعد أن ازداد كرشه انتفاخًا، وصلعته ـ حين يخلع العِمامة ـ اتِّساعًا. كان يتحدَّث بطريقة متعالية، كما لو اكتسب قوَّة ونفوذًا خفيَّين، بعد أن سرتْ شائعات عن تعاونه مع النظام في الإرشاد على الثوار وعناوينهم، وكان يلحّ في طلبه الزَّواج من «نعيم»؛ الفتاةِ المرحة ممشوقةِ القوام، والتي كانت تكرهه أيَّما كره، وتلوذ بياقوت التي رأيتها لأوَّل مرَّة خائفةً وقلقة ومتردِّدة، وتتحاشى إغضاب سيِّد محسن، وتتجاهل طلبه الوقح. وذات ليلة قائظة، جاء حاملًا معه قنينةَ عرق كان يخبِّئها تحت جُبَّته، وطلب من الفتيات إعدادَ الفرش والوسائد خلف البيت، ففعلن على مضض، وجلس يشرب العَرَق وحده بعد أن رفض الدكتور رياض مجالسته متعلِّلًا بحالته الصِّحيَّة السَّيِّئة، وأرسل في طلب جدَّتي «عجيبة» ورفضت هي الأخرى، فأمسك بـ «نعيم» وطلب منها أن تغنِّي وترقص له، لكنَّها أفلتت من قبضته ولاذت بي، فما كان منه إلَّا أن هجم عليها محاولًا جرَّها فدفعتُهُ بعيدًا ووقع فوق الكانون، وراح يجأر ويسبّني وينعتني باللَّقيط والمُخنَّث، ثمَّ حمل قطعة خشب كبيرة وهاجمني من جديد فصددته وطرحته أرضًا وبركت فوق صدره وهو يصيح. ووسط الهرج والتدافع، خرجتْ ياقوتُ تتبعها جدَّتي «عجيبة» وبقية البنات، ورفعنني عنه، فنهض وراح يهدِّد ياقوت بالويل والثبور وعظائم الأمور إن هي لم تحقِّق له مراده بتزويجه من «نعيم»، بينما كانت ياقوت تلتزم الهدوء وابتسامةُ مهادنة على مُحيَّاها. وعندما هدأت ثورته، اقتربت منه بثقة وهي تجمع ذيل ثوبها الموزَّد كي لا يتَّسخ بالرَّماد، وقالت له:

ـ اسمغ، أقول لك الحقيقة التي لم يخبرك بها أحد أيُها القميء. ما أنت سوى بهيمة سائبة لا تمتّ إلى البشر بصلة. وما تحمُلي لثقل دمك وقبح أخلاقك سوى كرمِ منّي ومِنّة. فقد اعتدت ألّا أسيء إلى أحد مهما يكن مستواه سُوقيًا، لكنّك تماديت في صلفك ونذالتك، ووشيتَ بأصحابك وأهلك، وتسبّبت بمقتل عشرات الشباب الأبرياء والذين ما أرادوا سوى نصرة أهلهم وبلدهم وقول «لا» في وجه الظالم. واليوم، تأتي بعد كلّ ما سبّبته من مُوبقات، لتسمُم حياتنا وتُجفل قلوب الفتيات البريئات اللّواتي لا أحد لهنّ سوايَ، ولا يحميهنّ أحدٌ سوى هذا البيت. لا واللّـه، لن أدعك تفعل ما دام في صدري نَفَسٌ يصعد وينزل حتّى لو كلّفني هذا حياتي، أيُها المسخ.

كانت ياقوت تتحدّث بهدوء ومن دون انفعال، لكن بحزم ووضوح، بينما راح وجه سيّد محسن يصفرّ من الدّهشة والصدمة. وبعد تلعثم وتردُّد، استجمع قواه ووعيَه، وقال:

ـ ما أنتِ سوى عاهرة تُؤوي مجموعة من العاهرات واللُّقطاء، أيّتها الفاجرة. من أنتِ كي تتكلّمي معي بهذه الطريقة؟

ثمّ عاد يلوّح بالخشبة الكبيرة التي بيده، فتقدّمتْ وبقيةَ الفتيات للحيلولة بينه وبين ياقوت، التي دفعتنا بهدوء وواجهته من جديد:

ـ أمّا أن أكون عاهرة في نظرك، فهذا نابع من أخلاقك وطبائعك التي جُبلتَ عليها، والمداهنةِ التي أدمنتها حتّى انمحت كرامتُك واحترامك لنفسك. وما زلتَ تداهنُ باسم الدّين نهارًا، وتشرب العَرَق ليلًا، فمثلك يرى الناس كما يرى نفسه. وما أنا سوى امرأة أجبرتني الظروف على امتهان الرّقص والغناء لأسرّي عن الناس البسطاء والكَسَبة الفقراء، الذين يكدحون بشرف طوال النهار من أجل لقمة الخبز المغمّسة بالكرامة وعرق الجبين. وقد آليتُ على نفسي ألّا يدخل الدّنَسُ بيتي مهما حدث، وأن أصون شرف الفتيات وأحمي أعراضهن من نذالة أمثالك.

ـ أنت راقصة في النهاية، يا عزيزتي. فعن أيّ شرف تتحدّثين؟

ـ نعم، ومثلك لا يفهم أيُها الدّعيّ. فالرّقص عندي هو نوع من العبادة أيضًا، وطريقةٌ لتحرير الجسد من قيوده وانطلاقِه حرًا في ملكوت المحبّة، التي هي محبّةُ اللّـه في النهاية، وليس مثلَ عبادتك الشوهاء التي تخدع بها السُذّجَ، ظنًا منك أنّك تخدع اللّـهَ المُطّلعَ على ما في القلوب والضمائر. فاغرب عني وعن بيتي، وإيّاك أن تعود ثانية بمُوبقاتك ونذالتك، وإن عدت

فلا تلومنَّ إلّا نفسك.

كانت عفاف ابنةُ زيدان الحوذيّ، قد انتقلت للعيش معنا في بيت السُودان منذ هروب أبيها خوفًا من رجال الأمن الذين راحوا يداهمون البيوت بحثًا عمَّن شارك في الانتفاضة أو حرَّض عليها، وكان بعض المسؤولين قد تقدَّموا ببلاغ عن نشاطها وقيادتِها مجاميعَ من الشبان الثائرين في أثناء تحرير السُجناء، أو تلطيخِ جداريَّة الرَّئيس. وكانت، في أثناء الشِّجار مع سيِّد محسن، مختبئةً في إحدى الغرف التي أوصدتها عليها «عجيبةُ» خوفًا من أن يراها ويُبلِّغ عنها السُلطات في المدينة. وعندما دخلنا البيت وأقفلت الفتيات الباب الخلفيّ المُطلّ على البستان، خرجت لنا منفوشةَ الشَّعر وهي تبكي وتصيح:

ـ كيف يجرؤ هذا الكلبُ الأجرب على إهانة ياقوت أمامكم. كيف سمحتم له؟ ها؟ باللّه عليكم، أخبروني: لِمَ لمْ تكسر له رأسه الأجوفَ يا علي؟! لقد أدميتم قلبي. كنت كاللَّبؤة المحبوسة في الحُجرة أكتم غضبي وأنا أسمع صراخه وسبابه. سامحك اللّه يا جدَّة «عجيبة». لِمَ حبستني في الغرفة؟ آه، يا إلهي، قلبي دامٍ وروحي موجوعة. ماذا أفعل أنا الآن بعد أن ولّى هاربًا ذاك النذلُ؟

ثمَّ جلست على الأرض وهي تنوح بوجع وحرقة، فاقتربت منها ياقوت وجثت أمامها واحتضنتها وراحت تقبِّل رأسها وتمسح دموعها، ثمَّ أنهضتها وصعدت بها إلى الطابق الثاني حيث حجرتُها. أمّا أنا، فبقيت جافلًا والألم يعتصر روحي، حتَّى تقدَّمت منّي «نعيم» وأمسكت بكفَيّ وقبَّلتهما، ثمَّ اشرأبت بعنقها وراحت تقبِّلني على خدي وفمي ورقبتي، وهي تقول:

ـ أثلجتَ صدري بدفاعك عنّي، يا حبيبي. اليوم فقط، أدركت أنَّ ثمَّة رجلًا يحترمني ويحبّني ويدرأ الشرّ عنّي. فديتك بروحي، علاوي الغالي. جميلك هذا سيبقى دَينًا في عنقي إلى الأبد.

ثمَّ راحت الفتيات ينفضن ما علق بملابسي من تراب ورماد، ووضعت «شمَّة» الثلج على كفّي التي احترقت قليلًا بجمر الكانون، وسمعنا صوت ياقوت ينادي على فوز لإعداد الحمّام كي تستحمّ عفاف. وفي اللَّيل، جلست ياقوت على سريرها فوق السطح تتوسَّطنا أنا وعفافُ، بينما جلست الفتيات جميعهن من حولنا وهنَّ يتحدَّثن عن جبن سيِّد محسن وتلعثمه وفرحهن بطرده. كانت ياقوت قد حممت عفافَ بنفسها وجفَّفت شعرها المجعَّد القصير، وعطَّرتها وألبستها ثوبًا فضفاضًا مزركشًا

بالورود. فكانت، برقبتها الطويلة وصدرها الناهد وجذعها المنتصب، مثلَ عمود ضوء ببياض بشرتها المهادن، وكانت تتبادل تدخين النرجيلة مع ياقوت بين الحين والآخر، حتَّى اقترحت «نعيم» أن نلعب لعبة الصينيَّة الأثيرة لديها، فعارضت ياقوت أوَّلَ الأمر لكنَّها رضخت في النهاية لرغبة الفتيات، وخصوصًا أنَّ عفافَ راحت تتساءل بحيرة:

ـ ما هي هذه اللُّعبة؟ ولِمَ أنتنَّ متحمِّسات لها هكذا؟

فضحكت ياقوت وهمست في أذنها:

ـ إنَّها لعبة ماجنة يحلو لهنَّ لعبُها ظنًّا منهنَّ أنهنَّ سينلن من حبيبي علاوي.

ثمَّ وجَّهت حديثها إلى الفتيات ضاحكة:

ـ لن تنلن منه. ألم أقل لكنَّ إنَّ قلبه مقفل ومفتاحه في عبِّي؟ يا لقلَّة حيلتكن.

وبين معارضة ياقوت وإصرار الفتيات وتساؤلات عفاف، أحضرت فوزُ صينيَّة وزجاجة كوكا كولا فارغةً، ورحن يتحلَّقن حولها متضاحكات، ثمَّ دعونَ عفافَ لتنضمَّ إليهنَّ، فنظرتْ إلى ياقوت متحيِّرة. وبعد تردُّد طلبت منها مشاركتهن:

ـ ما هي سوى لعبة. وما دمتِ أنتِ في بيتنا الآن فلا بأس في المشاركة، يا عزيزتي.

فنزلت عفاف وأوسعنَ لها المجال لتجلس بينهنَّ، ثمَّ راحت فوزُ تُدير الزجاجة بحركة رشيقة، فأخذت تدور بسرعة قبل أن تتباطأ وتستقرَ فوهتها أمام «نعيم»، التي نهضت بفرح ومسحت شفتيها بكمِّها واقتربت منِّي محاولةً تقبيلي، فأدرت وجهي، وتصايحت الفتيات محتجَّاتٍ وهنَّ يهتفن «من الفم، من الفم»، فأمسكت نعيم برأسي وطبعت قبلة طويلة على شفتيَّ حتَّى دفعتها ياقوتُ، في رفق، لتبتعد. ولحظتُ نظرات الدَّهشة في عينَيْ عفافَ التي بدت حائرة وخَجِلة ومصدومة من تصرُّف «نعيم» المشين، لكنَّ الفتيات واصلن اللُّعبة غير عابئات بنظراتها، حتَّى استقرَّت الفوهة هذه المرَّة في منطقة بين «شمَّة» وعفاف، ورحن يزحزحن الصينيَّة كي تميل نحو عفاف، فصاحت ياقوت ضاحكة:

ـ «شمَّة»، أيَّتها اللَّئيمة، لا تغشي.

فنهضت «شمَّة» وقبَّلتني قُبلة سريعة وعادت إلى مكانها، وكنت

ألمس رغبة الفتيات الدَّفينة في الإيقاع بعفاف وإحراجها، يدفعهن إلى ذلك فضولُهن، وربَّما قراءةُ ردَّة فعل ياقوت التي كنَّ يلمسن قلقها من التقارب بيني وبين عفاف التي هي زميلتي في الجامعة ولطالما سافرنا معًا إلى بغداد، وتربطنا علاقة من نوع ما. كما أنَّ عفافَ، الفتاةَ التي لا ينكر أحد جمالها وقوَّةَ شخصيَّتها ولونَ بشرتها الأبيض المغايرَ للون بشرتهن والذي يشبه لون بشرتي، أضافت إليهنَّ سببًا آخر للفضول. أمَّا أنا، فكنت أتمنَّى سرًّا أن تقف الفوهة أمامها لاكتشف ردَّة فعلها وأحظى بفرصة لطالما تمنَّيتها لتقبيلها من دون أن تنزعج ياقوت. وبعد أكثر من خمس دورات، وقفت الفوهة أمام عفاف وسط تهليل الفتيات الأخريات وفرحتهن، فرحنَ يشجِّعنها على النُّهوض وتقبيلي، وكانت عفافُ متردِّدة وطلبت أكثر من مرَّة إعفاءها، ثمَّ اقترحت عليهن أن يطلبن أيَّ طلب آخر لتنفِّذه لهنَّ، بما في ذلك الرَّقص، لكنَّهنَّ رفضن بشدَّة وأصررن على إذعانها لشروط اللُّعبة. وعندما لاحظت ياقوت تردُّدها هتفت بهنَّ:

ـ لا تُحرجن البُنية يا بنات. ربَّما تخجل من فعل ذلك. حسنًا، هل أقترح عليكنَّ رأيًا؟ ما رأيكنَّ لو تطوَّعت أنا في تقبيل علي بدلًا منها؟

فصاحت الفتيات بصوت واحد محتجّات:

ـ لا، لا. أنت بمثابة الحَكَم هنا. فكيف تفسدين اللُّعبة.

وفي النهاية، أذعنت عفاف لرغبتهن، واقتربت منِّي مُتعثِّرة بثوبها الفضفاض، وقد أحاطت بها الفتيات فَرِحاتٍ كما لو كنَّ يزففنها إلى ليلة عرسها، وشعرتُ بالحرج واللَّهفة معًا وأنا أنظر إلى وجهها المُضاء يقترب منِّي، وإطباقةِ جفنيها والحمرةِ التي اعتلت خدَّيها. وفي لحظة خاطفة، طبعت قُبلة عاجلة على شفتيَّ وابتعدت، فتصايحت الفتيات محتجِّات ومستنكرات هذا الغشَّ، وطلبن منها إعادة الكرَّة بطريقة أفضل، ورحن يدفعنها في اتِّجاهي، فانحنت بخجل وقبَّلتني قبلة شعرت معها بارتعاشة شفتيها وحرارة أنفاسها. وبينما هي منحنية فوقي، أخذت الفتيات بالتدافع خلفها ليشاهدن تأثير القبلة في وجهها. وفي زحمة التدافع، انكفأت عفافُ فوقي على السَّرير وداهمني عطرُها، وشعرت بصدرها البضِّ فوق صدري، وابتعدت الفتيات مندهشاتٍ، وبقينا هكذا للحظة حتَّى مالت فوقنا ياقوتُ وطلبت من عفافَ النهوضَ وهي تضحك:

ـ انهضي، يا عزيزتي. ما لك كما لو كنت غيرَ مصدِّقة.

فنهضت عفافُ تداري حرجها وجلست إلى جانب ياقوت مُطرِقةً.

وفي اللّيل، طلبت منها ياقوت النوم إلى جانبها فوق سريرها الفسيح، فنامت إلى يمينها ونمت أنا إلى يسارها، وكانت تحتضننا وتُقبّلنا على شفتَي كلٍّ منّا، طوال اللّيل، وتقول:

ـ يا ملاكَيّ الصّغيرين. يا حبيبَيّ الغاليَين. ما أسعدني وأنا أنام وسطكما.

وكانت ليلة موغلة في الألم والقسوة بالنسبة إليّ بعد أن رحت أتحسّس شفتَي وأراقب وجهَ عفاف وإطباقةَ جفنيها وشعرَها المتموّج، وأشمُّ عطرَها الذي اختلط بعطر ياقوت.

وفي الصّباح، عندما جلسنا نتناول فطورنا، شعرتُ بالفتيات يعاملننا كما لو كنّا عريسين خرجا توًّا من ليلتهما الأولى، فاحتفين بنا، وقدّمن إلينا القيمر والدّبس والبيض والخبز الساخن والشاي بالحليب، وكانت عفاف غير مصدّقة تلك المشاعرَ وكمَّ الطّيبة التي تتمتّع بها الفتيات، وإصرارَهنّ على الفرح، وأرواحَهنّ المرحةَ، والتي لا تعرف إلّا الضحك والتمتُّعَ برواية الطرائف والسُّخريّةَ من الأوضاع المحيطة بهنّ، وشدّةَ تعلُّقهن بياقوت وحبّهنّ لها كما لو كانت إلهتهن المقدّسةَ، لا مجرّد امرأة قُدّر لها أن تكون في موضع القيادة والإشراف على مجريات الأمور، على الرّغم من أنّ فارق السّنّ بينهن وبينها ليس كبيرًا، بل إنّ بعضهن أكبرُ منها سنًّا. أمّا أنا، فكنت أشعر بامتنان عفاف وفرحتِها، وهي تحظى لأوّل مرّة في حياتها بحنان الأمّ وبأخوات أكبرَ منها يُحببنها ويعطفن عليها من دون مواربة أو مداهنة، وهي التي حُرمت حنانَ الأمّ طوال حياتها القاسية، والتي انعكست على شخصيّتها بعد أن أشرف والدُها، الرّجلُ الكادح البسيط، على تربيتها وعمل المستحيل من أجل توفير الأمان والظروف المناسبة لها لتواصل دراستَها وتقتحم مسالك الحياة الصّعبةَ وفق مبادئه التي نشأ عليها، وقناعاتِه السياسيّة العميقة، وهو شبهُ الأمّيّ، البسيطُ والحوذيّ المتواضع، لكنّه أيضًا المناضلُ القويُّ ذو الشكيمة والشّجاعة. ولم يكن شيء ليُفسد على عفاف فرحتَها تلك في بيت السُّودان سوى التفكير في مصير أبيها، وسؤالِها الدّائم عنه، وتسقُّطِ أخباره من بعض شباب الانتفاضة الذين فرُّوا إلى الأهوار، ثمّ عادوا سرًّا إلى المدينة، لكن من دون جدوى. وعندما استقرّت الأوضاع قليلًا، وفُتحت الطرق الخارجيّة بين المحافظات والعاصمة، سمحت لنا ياقوت أخيرًا بالذهاب إلى بغداد واستئناف دراستنا في الجامعة، وهناك اكتشفنا أنّ أغلب رفاقنا في التّنظيم الطُّلّابي قد اختفوا، وكانت الأخبار تصلنا تباعًا وتفيد بمقتل فلان واعتقال علّان، فجفلت

روحانا، ورحنا نمضي ساعات ما بعد الدّراسة في القراءة والبحث في المكتبة العامّة، وأيّامَ الجُمَع أصطحب عفاف إلى سوق الغزل لترى أنواع الطيور والطواويس والقردة وبعض الحيوانات الغريبة التي كانت تُعرض للبيع هناك. وكانت تلك هوايتَها الكبيرة بعد القراءة. وسرعان ما بدأت الأوضاع الاقتصاديّة تسوء في البلد بعد أن اشتدّ الحصار على الناس، ولم نشأ أن نُثقل على ياقوت بمصاريفنا بعد أن شحَّ المال عليها هي الأخرى، وتوقّفتْ أو كادت حلقات الرّقص في ليالي الجُمُعات خوفًا من رجال الأمن وشحّ المال لدى جمهور بيت السُّودان المتكوّن في جلّه من باعة المفرق والكَسَبة وبعض الجنود، فسعيتُ للحصول عل عمل بسيط يمكن أن يؤمّن لنا بعض المتطلّبات. وتمكّنت، بواسطة صديق كان معنا في التّنظيم الطُّلّابي، من الحصول على فسحة صغيرة لا تتجاوز المتر المربّع في شارع المتنبّي، افترشتها وفردتُ عليها بعضَ الكتب القديمة والنادرة، ورحت أبيعها لزبائن محدّدين أيّام الجُمَع، وكان الدّخل البسيط الذي أحصل عليه كافيًا لشراء بعض الطّعام والخروج مع عفاف للتنزُّه على شواطئ نهر دجلة. أمّا عفافُ، فقد زادت طباعها حدّةً وتمرُّدًا نتيجة لتلك الأوضاع التي كنّا نعيشها، وكانت تميل إلى التطرُّف في آرائها ومناقشاتها السياسيّة مع الطّلبة، وكنت أحذّرها من مغبّة تمرُّدها هذا وانفلاتِ لسانها، لكنّها ما كانت لترعوي، بل ازدادت سخريّتها من الأوضاع، وتراجعت عواطفُها، وصارت تسخر من الشباب الذين يلمّحون إليها بعلاقة عاطفيّة أو يمتدحون جمالها. وكنت أشعر بردّة فعلها تلك إزاء الأوضاع وسخريّتها وأخاف عليها. ولطالما تفحّصتُ مشاعري تجاهها، وفيما إذا كنت قادرًا على التوغُّل في علاقتي بها، أم إنّ مشاعري الغريبة تجاه ياقوت وهيمنتها وحضورها المبهم لا تزال طاغية عليّ؟ وكنت أرغب في عفاف وأتمنّى اللّقاء بها وتمضية الوقت معها، لكن قسوتها تُجفل روحي وتدفعني إلى تخيُّل حضور ياقوت الطاغي وعالمِها المعطّر، فأشعر بالضياع والحيرة.

كانت عفاف ناحلة ذات قوام مشدود ورقبةٍ طويلة وبشرة بيضاء وعينين سوداوين عميقتين غامضتين، وشعرٍ مموّج قصير، وكانت ترتدي بنطلون الجينز والقميص القطنيّ تحت العباءة التي تطويها حالما تدخل الحرم الجامعي. كان الجميع مأسورًا بقوّة حضورها وشخصيّتها وثقافتها وتحرُّرها، لكنّها لم تكن ميّالة إلى توطيد علاقتها بأحد على نحو خاصّ. حتّى رفاقُها في اتّحاد الطّلبة الذين غالبًا ما تقتضي الظروف لقاءها معهم، أو عقدَ اجتماعات مموّهة معهم في أماكن لم تخطر في بال السُّلطات آنذاك، لم تكن لتسمح بتجاوز علاقتها بهم حدودَ العمل الاتّحاديّ فقط، إلّا

في العطلات الصيفيّة، إذ كنّا نتوجّه في الحافلة أنا وهي معًا إلى مدينتنا الناصريّة، وهناك تستمرّ لقاءاتنا شبه الأسبوعيّة، وغالبًا في البيوت، على شكل زيارات عائليّة أو ما شابه، وكانت تمتلك قدرة مَهُولة على التَّخفّي والتنكُّر للتملُّص من رجال الأمن، فكانت ترتدي الفوطة مرّة، أو تربط العباءة حول خصرها على طريقة القرويات بائعات اللَّبن الخاثر مرّة أخرى، أو تتلفَّع بثوب الهاشميّ الفضفاض على طريقة الملّايات اللّواتي يقرأن قصائد الرّثاء أيّام عاشوراء، يساعدها في ذلك عذوبةُ صوتها ذي النبرة المُحبَّبة. ولا يمكن لأيّ رجل يقترب منها أو يعمل معها ألّا يُعجَب بها في الحقيقة، فهي من النوع الجاذب بشدّة، ولعلَّ هذا الأمر تحديدًا هو ما جعلها تكتسب مناعة وقدرة على المقاومة والتملُّص من الرِّجال ودعواتهم أو نظراتهم النَّهِمة، عندما ينظرون إلى صفاء عينيها العميقتين وبشرتِها الحليبيّة المشرَّبة بحمرة محبَّبة، ورقبتِها الطويلة وصدرِها الناهد على الرَّغم من نحولها.

«علاوي الغالي»، هكذا كانت تناديني دائمًا عندما نكون خارج إطار العمل التَّنظيميّ، أو نجلس متجاورَين في القطار النازل إلى الجنوب حيث مدينتُنا الناصريّة أيّام العطلات. أمّا أنا، فكنت أطلق عليها تسمية غريبة لطالما اندهشتُ لها وضحكت منها:

ـ عفَو.

ـ ماذا؟؟

ـ عفَو، ما بك؟ هذا الاسم أحبُّه.

ـ يا لك من غريب. من أين أتيت به؟

ـ ما به؟ ألا يعجبك؟

ـ بلى، لكنَّه غريب. لم أسمعه من قبل.

ثمَّ تنظر إليّ ضاحكة:

ـ حسنًا، كما تشاء. سمِّني عفَو. لكن ليس أمام الآخرين. فقط عندما نكون وحدنا.

وكنت أشعر بسعادة غامرة في الحقيقة وأنا أفرض عليها خصوصيّة من نوع ما تربطنا وحدنا، حتّى لو كانت اسمًا غريبًا.

غالبًا ما نمضي اللَّيل ساهرَين، في القطار النازل إلى الجنوب، نتحدَّث عن الأدب، وأقرأ لها قصائد الغزل، وتحدّثني عن مكسيم غوركي وغوغول، وأحيانًا عندما تنعس تركن رأسها إلى كتفي وتغفو إغفاءة

قصيرة، فأتمكّن من تأمُل كفَّيها الصَّغيرتين ونهديها النائمين، وأتحسَّس حرارة جسدها الملتصق بجسدي. كانت تلك اللَّحظات جائزتي الحقيقيَّةَ وبهجتي التي أنتظرها عامًا دراسيًا كاملًا، ولا أدري في الحقيقة إذا كانت عفافُ تشعر بالنُعاس في كلّ مرَّة نستقلُّ فيها القطار النازل إلى الجنوب، أم أنَّها كانت تشعر بفرحي وبهجتي فتتصنَّع تلك الإغفاءة مكافأةً لي، أو مجاراةً للهفتي الطفلة التي قد تكون قرأتها في عينَيّ أو في تصرُّفاتي. لكن بالنسبة إليّ، هي لحظات نادرة من الوجيب الآسر والنشوة اللَّذيذة مهما يكن الأمر. أحيانًا، عندما يقف القطار في محطَّة المحاويل، حيث باعةُ الشاي والكعك وشطائر البيض المسلوق، أحاول إيقاظها، أوَّلًا همسًا:

ـ عفَو، عفَو، استيقظي، وصلنا إلى المحاويل.

وعندما لا تستيقظ، أو تتمثَّل النوم العميق، أمدّ يدي، في رفق، لأربّت على خدّها الناعم:

ـ عفَو، استيقظي. لقد وصلنا إلى المحاويل يا عزيزتي.

وفي حال تكون رائقة وتعطف على لهفتي توغل في التَّظاهر بالنَّوم العميق ولا تستجيب لندائي، عندها فقط أتجرَّأ وأمسك رأسها بكلتا يدي وأمرّر أصابعي المُندهشة فوق خدّها وعينيها، وأحيانًا فوق شفتيها:

ـ عفَو، استيقظي يا عزيزتي. وصلنا إلى المحاويل.

فيتمايل رأسها وتعود لتلقيه بتصنُّع على كتفي من جديد لأعيد الكرَّة ثانية حتَّى تشعر في داخلها بأنَّني ارتويت، فترفع رقبتها وتنفض رأسها وتقول بصوت ناعس:

ـ أووووه، يا عزيزي. لقد غلبني النوم.

في القطار النازل إلى الجنوب دائمًا ثمَّة جلبةٌ وهرج ومرج وجنود وأكداس من الأمتعة وأقفاص دجاج. وفي محطَّة المحاويل، يضطرّ القطار إلى التوقُّف أكثر من ساعة حتَّى يأتي القطار الصاعد إلى بغداد، لأنَّ السِّكَّة ذاتُ ممرّ واحد، وكنَّا نستغلّ التوقُّف هذا للنزول والتسكُّع في حديقة المحطَّة الصَّغيرة وسط أشجار الدُّفلى بعيدًا عن عيون الباعة وأصحاب الأكشاك، نحضِّر كوبين من الشاي السَّاخن وشطيرتَي بيض مسلوق، ثمَّ تجلس عفاف على الأرض لتدخِّن. وفي الأفق البعيد، تتناثر مصابيح مدينة المحاويل الصغيرة، وتهبّ نسمةُ هواء منعشة، فتنفض عفاف رماد سيجارتها في قدح الشاي الورقيّ الفارغ:

ـ هل تعتقد أنَّهم سمّوها المحاويل بسبب تحويلة القطارات فيها؟

ـ أعتقد ذلك. غالبًا ما أسمع عن مدن تُقام حول المحطات.

ثمَّ تنظر ناحية القطار الطويل المتوقِّف والجنودِ صغار السِّنّ الذين يتراكضون على الرَّصيف الممتدّ بصخب:

ـ انظر إليهم كم هم صغار وعفويُّون. ربَّما يكون الموت ينتظر بعضهم في الصباح. هؤلاء المساكين، ألا يستحقُّون حياةً أفضل من هذه؟ وهذا القطارُ الهَرِم، والذي يشبه أفعى ميِّتة يجرجر قاطراته بتثاقل، ألا نستحقّ أفضلَ منه؟

كانت عفاف تطرح الأسئلة من دون أن تنتظر جوابًا منّي، ونظرُها مُعلَّق في الأفق اللَّيليّ البعيد، بينما أكتفي بتأمُّل جمال رقبتها الطويلة وكتفيها المقوَّستين. كنت جالسًا قبالتها على العشب ولا يفصل بيننا سوى متر واحد. نظرتْ إليّ فجأة ونفثتْ دخان سيجارتها بانتشاء:

ـ ما لي أراك متبلِّمًا. أنت صموت على فكرة.

ـ أعرف ذلك. في الحقيقة، عندما أكون معكِ أفضِّل الصَّمت. حضورك الطاغي يُربكني.

حصرَتْ عقب السيجارة بين السَّبَّابة والإبهام ورمته صوبي بحركة متقَنة، فارتطم بصدري وسقط في حجري، فنهضتْ مرتعبًا وأنا أنفض ملابسي من بقايا الشَّرر الآفل، بينما غرقتْ هي في موجة من الضحك:

ـ ما بك؟ هل احترق؟ أرِني.

ثمَّ حاولت جذبي نحوها وهي تقول:

ـ أرِني، ما بك؟ دعني أتفحَّصه. أهمّ شيء ألّا يحترق رأسمالك.

فأبعدتْ يدها وعدت إلى الجلوس على العشب:

ـ لمَ فعلتِ هذا؟

ـ تستأهل. صمتك يقتلني. هدوؤك يستفزُّني ويثير أعصابي. لا تجلس أمامي صامتًا هكذا. تحدَّث. قُلْ أيّ شيء. سبِّني. هل تستطيع أن تسبّني؟ ها؟ جرّبْ ذلك. سبِّني، أرجوك.

ـ ماذا تقولين أنت؟ لا أستطيع ذلك!

ـ لماذا؟ هل أنا إلهتك الخاصَّة؟ هل تحبّني أنت؟ أرجو ألّا تكون مجنونًا بي أنت الآخر؟!

ـ أنا أحترمك في الواقع ولا أستطيع أن أسبّك. هذا كلّ ما في الأمر.

ـ لكنك في سرك تتمنّاني. أنت رجل في النهاية.

لم أكن أعلم بما أجيبها، وبقيت مُطرقًا في الحقيقة بسبب الخجل. انتزعت قبضة من العشب ورمتها في اتّجاهي:

ـ لم تُجبني أيُها الأحمق. لا يكون تحبّني من صدق؟!

ـ ...

ـ علاوي، عزيزي. لِمَ لا تجيب؟

ـ عمَّ؟

ـ عن سؤالي يا عزيزي. هل تحبّني؟

ـ ومن يستطيع ألّا يحبّك. جميعهم يتمنّون رضاك ويتودّدون إليكِ.

ـ وأنت؟

ـ القطار سيتحرّك قريبًا. علينا العودة إلى مقعدينا.

ـ لن أبرح مكاني هذا حتّى لو غادر القطار ما لم تُجبني.

ـ ما بك؟ هل جُننت؟

ـ لو كنت مكانك لعبّرت عمّا يجيش في داخلي من مشاعر. أنا، مثلًا، لديّ الشّجاعةُ كي أقول لك إنّني لا أحبّك. أنت لست من النّوع الذي يستهويني. بشرتك بيضاء أكثر ممّا يجب، وشعرك ناعم. والأهمّ من هذا، لست شجاعًا للتّعبير عن مشاعرك وآرائك. تعرف؟ أنت لا تصلح حتّى للعمل الثوريّ.

ـ شكرًا، هل نستطيع العودة إلى القطار الآن.

ـ لا.

قالتها بغضب بائن وانزعاج، ثمّ أخرجت سيجارة جديدة وراحت تدخّن، فاقتربتُ منها بحذر ووضعت يدي على كتفها:

ـ ما بك، يا عزيزتي، عفْو؟ ما الذي يزعجك؟

نظرت إليّ فجأة بغضب وفردت يدها ذات السيجارة بوجهي:

ـ ابتعد عنّي.

فسحبت يدي على الفور ورحت أتمشّى في الممرّ الحجريّ الذي يقطع فسحة العشب. بدت المحطة مُعتمة من هذه الناحية وبدا اللّيلُ أكثرَ ظلمة، وثمّة ساقية يترقرق الماء فيها وضفادعُ تنقّ في مكان ما، والنجومُ متلألئة في السّماء البعيدة. وفي نهاية الحديقة اللّيليّة ثمّة سياج حديديّ مشبّك يُرخي خلفه اللّيلُ الصّحراويّ سدولَه الغامضة، وبقيت واقفًا هناك

أتأمّل الكائنات الخرافيّة التي رحت أتصوّرها تفرد أجنحتها العملاقة في الظّلمة وهي تنفصل عن الوهاد، ثمّ رأيت كتلة تقترب من سياج الحديقة من الخارج، اعتقدتها جَملًا أوّل وهلة، لكن عندما اقتربت أكثر من السّياج اتّضح أنّها غزالة، وقفت منتصبة قبالتي وراحت تتأمّلني بصمت. وتخيّلتُ عينيها السّوداوين وقوائمها الرشيقة، وشعرت برغبة عارمة في تسلّق السّياج والقفز خارجه، كما لو كانت تلك الغزالة الوحيدةُ والخائفة تدعوني إليها، فتقدّمت ببطء وأمسكت المشبّك الحديديّ متفحّصًا متانته. كان قويًا كفاية ومدعّمًا بأعمدة كونكريتيّة تنتشر على مسافات منتظمة، وما إن هممت بالتسلّق حتّى لمحت كتلة سوداء تقترب من خلف الغزالة، سرعان ما اتّضحت معالمها. كانت امرأةً عجوزًا تسمك بعصًا طويلة صُنعت من جذع متيبّس، وتعلّق بصدرها قلادةً من الخزف والحلزونات. وقفت خلف الغزالة مباشرة وفردت يدها في وجهي، وقالت: احذر، لا تجتَزِ السّياج. ستتوه في هذا اللّيل البهيم. عُد من حيث أتيت.

فنظرت إلى الغزالة. كانت منتصبة ونظراتها تتوسّلني بصمت، غيرَ عابئة بالمرأة العجوز، أو ربّما لم تلحظ وجودها أصلًا. وفجأة، شعرت بكفٍّ صغيرة تربّت على كتفي، فجفلتُ واستدرتُ مرعوبًا ليطالعني وجه عفاف حزينًا، وعيناها اللّتان تشبهان عينَي تلك الغزالة التي اختفت على الفور تتوسّلانني، ولم أعد أرى سوى اللّيل الأسود عبر السّياج.

ـ ما بكَ؟

كنت مندهشًا ومفزوعًا وقلبي يخفق بشدّة.

ـ علاوي؟ ما بك، يا عزيزي؟ أنا آسفة. لقد أزعجتك بكلامي. يا لسخافتي.

ـ لا عليكِ.

ثمّ أمسكت بكفّي وقادتني عائدةً إلى فسحة العشب.

ـ تعالَ، يا عزيزي. قل لي: كيف أعتذر منك؟ أنا آسفة بحقّ. لم أدرك أنّك حسّاس إلى هذه الدرجة.

كانت يدُها صغيرةً ورطبة وتبعث عبر يدي صعقاتٍ كهربائيّةً خفيفة ومهدّئة، فاستسلمتُ لها ومشيت معها بهدوء، ثمّ جلست فوق العشب ثانية، وطلبت منّي أن أجلس إلى جانبها ففعلت. وبينما نحن كذلك، أجفلنا صفيرُ القطار الذي انطلق فجأة معلنًا الاستعداد لاستئناف رحلة اللّيل العجيبة؛ أقصد رحلة ذلك القطار النازل إلى الجنوب في تلك اللّيلة

الصيفيَّة القائظة. وما إن تحرَّك ساحبًا قاطراتِه الثقيلةَ حتَّى اندحرت المحطَّةُ وحديقتُها، وانفتح اللَّيلُ البهيم الذي رحت أتأمَّله من النافذة، بينما جلست عفاف إلى جانبي صامتةً يبثّ جسدها الصغير موجاتِ آسرةً من الحرارة اللَّذيذة في جسدي الجافل.

✺ ✺ ✺

كانت الأيّام تمضي متثاقلة في بيت السُودان، الذي انطفأ بريقُ لياليه الملوَّنة، وانكتم صوتُ الموسيقى فيه، وأُخفيت الدُفوف والصناجات والدنابك، وانمحت الحنّاءُ عن كفوف فتياته الحزينات. وفي ليالي الأصياف، كنّا بين الحين والآخر، نخرج خِلسة إلى البستان محاذرين رجالَ الأمن. كنّا نجلس، أغلب الأحيان، أنا والدكتورُ رياض نتحاور بشأن الأوضاع السياسيّة وما ستؤول إليه الأمور، بعد أن فُرض الحصار الدولي على العراق. وعندما كانت تأتي ياقوت وتجلس معنا مصطحبةً عفاف، يدور الحديث عن الجمال والأرواح المُلتاعة والتي تتعبّد بحركة الأجساد وتتحرّر من قيودها، يقودها الحبُّ الخالص؛ الحبُّ الذي يقول عنه الدكتور رياض إنّه لمسة خاطفة ما إن تمسّ الرُوح حتّى تبقى معنا إلى الأبد، حتّى بعد موتنا، وكيف أنّ الحياة مُحبٌّ ومحبوبٌ. ومن يغادر الدُنيا ولم يكن أحدَهما، فلن يدخل الجنّة أبدًا.

ـ لكنْ، ألم يمسَّ الحُبُّ قلبَك يا عمّ رياض؟

ينظر نحوي بحب وجفول، والحزن يقطر من عينيه الكامدتين، ويقول:

ـ سبحان مَن لم يمسَّ الحُبُّ قلبَه، يا ولدي علاوي.

انتبهت ياقوت وعفاف لحديثنا، وراحتا تنظران إلى الدكتور رياض بفضول، ثمَّ قالت ياقوت ضاحكةً كعادتها:

ـ احكِ لنا يا دكتور عن قِصّتك. أنت لا تتحدّث كثيرًا، وأنا أحترم صمتك وخصوصيّتك في هذا الجانب. لكن إن رغبت في إخبارنا بشيء عن ماضيك فسنكون ممتنّين لك.

وأردفت عفاف قائلة:

ـ صحيح يا عمّ رياض، احكِ لنا شيئًا، أرجوك.

ابتسم الدكتور رياض ونظر إليّ معاتبًا:

ـ أرأيت؟ لقد فتحت علينا بابًا لن نستطيع إغلاقه. فأنا لا أستطيع أن أرفض طلبًا لياقوت الغالية، يا عزيزي.

ثمَّ صمتَ برهة، ونظر إليّ ثانية وقال:

ـ هل تعرف ما معنى الياقوت؟

ـ نعم، هو حجر كريم غايةٌ في الجمال.

ـ حسنًا، ليس هذا فحسب. فالياقوت يساعد على صفاء الرُوح، وهو

علامة الحُبّ الشديد المقترنِ بالغيرة، يعطي صاحبه قوّة الجاذبيّة والهيبة، ويَقيه من السّحر.

نظرتُ إلى ياقوت التي أطرقت خجلًا لوهلة، قبل أن تقول:

ـ يا لنبلك يا عزيزي الدكتور رياض. أنا متأكّدة من أنّ ما قلته من تأليفك أنت، لكنّني أشكرك على أيّ حال.

ـ أبدًا، هذا الحديث موجود في الكتب. لهذا، يبحث الناس عن الياقوت ويدفعون أموالًا طائلة للحصول عليه، بينما أنعم اللّه علينا بنعمته فجعلنا نتمتّع بياقوتة ثمينة تجلس معنا وتتحدّث إلينا بتواضع وطيبة، ثمّ ترقص لنا فتذيب القلوبَ من فرط سحرها وجمالها. أنت قريبة جدًا من اللّه، يا ابنتي. فهو موجود في قلوب المحبّين الصادقين من عبَاده. وما الرّقص في بيت السّودان الذي ترفعين عمادَه بيدك الضعيفة المجرّدة، سوى طقسٍ دينيّ تخالطه بعضُ معتقدات متداخلة وطرائقَ صوفيّة. وقد كان لقمانُ الحكيم أسمرَ البشرة أيضًا، والجاحظُ كذلك.

ضحكت ياقوت وقالت معلّقة:

ـ يا لوسع حيلتك يا دكتور. أنت تروي لنا هذه القِصص الغريبة كي تُلهينا بها وتشغلنا عن قِصّتك التي نتحرّق إلى سماعها.

ضحك الدكتور رياض، ثمّ عدّل وضع الوسائد تحت مرفقه، وقال:

ـ أووووه، إنّها قِصّة قديمة جدًا، حدثت معي أيّام كنت شابًا يافعًا في مقتبل العمر، حين حضر إلى مدينتنا سيرك يُقدّم عروضًا شيّقة، وسمعت من أصحابي قِصصًا مدهشة عمّا يحدث فيه من أعاجيب، وكيف ترقص النمور وتطير الأسود عبر حلقات النار، وترتقي الفِيَلة السلالمَ. وكان خيالي يطير بي يوميًا إلى تلك العوالم الآسرة، فجمّعت مصروفي اليوميّ البسيط، واستدنت درهمًا من أختي، ودخلت السيرك، فرأيت الأعاجيب فعلًا، ولم أكن أريد المغادرة من فرط اندهاشي ممّا رأيت. وبينما أنا في طريقي إلى البوابة، لفتت انتباهي لافتةٌ كبيرة مرسومٌ فيها صورةُ راقصة شبهِ عارية تتزيّن بالمصابيح المضيئة، فدفعني الفضول إلى دخول الخيمة التي كانت تنبعث منها موسيقى شرقيّة صادحة، لكنْ تبيّن أنّ ثمن الدُّخول عشرة فلوس ولم يكن معي نقود وقتها، لكنّ الفضول أخذ منّي مأخذًا فاستدرتُ خلف الخيمة خلسةً ورفعت طرفها وتسلّلت بصعوبة إلى الداخل بعد أن كان الجميع منشغلًا بالعرض الذي بدت فيه الراقصة الجميلة تتمايل، وثمّة رجل يضع المصابيح على خصرها وبطنها وردفيها، فتضيء

وهو يصيح:

- أرّرررررب... أرّررررررب. تعالَ شوف. على بطنها تنوّر. على صدرها تنوّر...

وكان الجمهور، الذي جلُّه من الصّبية، مندهشًا. وما كانت قِصّةُ المصابيح لتثير فضولي ودهشتي، وإنّما الرّاقصة نفسُها التي بدت بجسدها المتناسق الجميل مثلَ قطعة الزبدة السّائحة، فجُنّ جنوني بها وصرت أتخيّلها في اللّيالي، وأتحيّن الفرص لمشاهدتها، حتّى تمكّنت في النهاية من عمل حفرة صغيرة تحت سياج الأسلاك الذي يحيط بالسيرك، ورحت يوميًا أدس جسدي الناحل عبرها ثمّ أتسلّل من خلف الخيمة وأمتّع ناظري بالجسد البضّ والمتمايل أمامي. وذات يوم، وكان يوم جمعة، تسلّلت إلى السيرك ولم أنتبه من فورة شغفي، إلى أنّه يوم راحة لا يعملون فيه ولا يستقبلون الجمهور، لكنّني مع ذلك استمعت إلى الرجل الذي كان يصيح أيّام العرض «أرّرررب... أرّررررب»، يعنّف الرّاقصة ويتجادل معها بشأن المال، ثمّ حمل عصًا وراح يضربها وهي تستغيث. فخرجتُ، من دون وعي منّي، من مخبئي، وهجمت عليه كالنّمر وطرحته أرضًا بعد أن أخذت العصا منه ورحت ألكمه على وجهه حتّى أدميته، والرّاقصة تسحبني من الخلف وهي تصيح «سيبو... سيبو»، فتركته ووقفت أمامها منذهلًا، ورأيت الرجل يتحامل على وجعه ويخرج بصمت، بينما أجلستني على كرسيّ صغير وقدّمت إليّ الماء.

- من أين خرجتَ أيّها المجنون؟ كنتَ ستقتل الرجل! ماذا جرى لك؟

نظرت إلى عينيها الكحيلتين متحيّرًا، ولم أعرف بمَ أجيب، فاقتربت منّي، ومسحت وجهي بيدها التي تزنّرها الأساور الملوّنة، وقالت:

- أنتَ، كيف دخلت الخيمة؟

فأشرت إلى الحفرة الصّغيرة التي عملتها.

نظرتْ مليًا إليها متفحّصة، ثمّ عادت ونظرتْ إليّ، وأطلقت ضحكة صادحة:

- يا لك من مجنون.

فابتسمتُ ببلاهة قبل أن تقترب منّي ويداهمني عطرها:

- ما اسمك؟

- رياض.

ومن يومها نشأت علاقة غريبة بيني وبينها، ولم تخبر أحدًا بشأن حفرتي التي رحت أدخل منها يوميًا لأشاهد عرضها، ثمَّ أتسلَّل إلى خيمتها الخاصَّة لتحدّثني عن أصلها وفصلها، وكيف قَدِمَتْ من اليونان إلى الإسكندريَّة، وكيف عملت خادمةً في بيت صائغ يهوديّ قبل أن تهرب مع صديق لها إلى السويس. كان فارق العمر بيني وبينها كبيرًا، لكنَّني كنت مأسورًا بها وبعطرها الأخّاذ حين تقترب منّي أو تضع يدها على كتفي وتداعبني. وكدت أهيم حبًّا بها. وذات يوم، أخبرتني بأنَّ السيرك سينتقل إلى مدينة أخرى، وعليّ الكفّ عن المجيء متسلِّلًا، لكنَّني أصررت على المجيء. وفي اليوم التالي، أحضرتُ حقيبة صغيرة فيها بعضُ الملابس، وهربت معها تاركًا مدرستي وأمّي وأختي التي راحت تجوب البلاد بحثًا عنّي من دون جدوى. وهكذا، أمضيتُ سنة كاملة، وأنا أجوب المدن، وأحمل الحاجيّات، وأقوم بأعمال التَّنظيف والخدمة، من أجل أن أكون قريبًا منها. وكانت تعطف عليّ وتداعبني كما لو كنت صغيرًا. وذاتَ ليلة، دخلت خيمتها وكانت تتهيَّأ للنوم، فداهمتها واحتضنتها بقوَّة وأنا أتنشَّق عطرها وأقبل كتفيها وزنديها. أمَّا هي، فقد بهتت أوَّلَ الأمر، لكنَّها سرعان ما راحت تدفعني عنها وهي تصيح:

ـ ابتعد عنّي، يا مجنون. ماذا تفعل؟ أرجوك اتركني.

لكنَّني كنت متشبّثًا بها بكلّ قوَّتي، حتَّى سقطنا معًا على السَّرير، فاعتليتها كالمجنون، وأفرجت ما بين ساقيها. ثمَّ فجأة، أمسكتْ رأسي ونظرت إلى عينيّ، وراحت تربّت على خدّي وتقول:

ـ اهدأ يا صغيري. اهدأ، اهدأ.

فانتبهت لنفسي وأنا أرتجف، فخلَّصَتْ جسدها منّي ووقفتْ، بينما بقيت متكوِّرًا على السَّرير، ثمَّ أطفأتِ المصباح وجرَّتني من يدي وأدخلتني الحمّام.

ـ اغتسلْ. رائحتك تشبه رائحة الخنزير البرّيّ.

فتحمَّمت وأنا غيرُ مصدِّق ما جرى. وعندما دخلتُ الخيمة ثانية وجدتها شبه عارية وممدَّدة تحت الغطاء، فاندسستُ إلى جانبها وغصت في لذَّتها. ومن سوء حظّي، كانت تلك اللَّيلة الأخيرة التي تسبق سفرهم عائدين إلى الإسكندريَّة بالباخرة. فجُنَّ جنوني، وقرَّرت الرَّحيل معهم، لكنَّ موظفي الجمارك رفضوا السَّماح لي بالمغادرة لعدم امتلاكي جوازَ سفر، وراحوا يسخرون منّي. وهكذا، غادرت الباخرة وانخلع فؤادي، وبقيت

ثلاثة أيّام متواصلة أبكي وأنحب في البصرة، قبل أن أقرّر العودة إلى هيت بالدّينار الذي دسّته في جيبي يوم مغادرتها. ومن يومها، وأنا عازف عن أيّ امرأة غيرها، ولا تزال إلى يومنا هذا حاضرةً في خيالي تناجيني وأناجيها كما لو أنّ الأمر حدث البارحة.

كنّا مبهورين بالحكاية التي راح الدكتور رياض يرويها بتفصيلاتها الدّقيقة، ويصف مشاعره واختلاجاته آنذاك، فانتزعتُ نفسي من الدّهشة وسألته باستغراب:

ـ متى حدث ذلك يا عمّ رياض؟

نظر إلي بحزن، وقال بجفول كما لو كان ينطق ببديهة عادية:

ـ منذ ستّين سنة يا ولدي.

ـ وما كان اسمها؟

ـ مُنيرة. ألم أخبركم بذلك؟

طلبت ياقوت من «نعيم» إحضار النرجيلة، وجلست مُقرفصة ساهمة وهي تنظر في عمق البستان المظلم، وأسندت عفافُ رأسها إلى كتفها وهي تتطلّع إليّ بحزن، بينما ركن الدكتور رياض رأسه إلى الجدار خلفه وغطّ في النوم كما لو كان قد أزاح همًّا ثقيلًا عن صدره. ثمّ نظرَتْ إليّ ياقوت بعينين نديّتين، وأشارت إليّ أن آتي وأجلس إلى جانبها، وراحت تحضنني وتقبّلني وسط دهشة عفاف التي سحبت رقبتَها ياقوتُ وضمّتها إليّ فوق صدرها، وبقينا مدّة على هذه الحال، إلى أن حضرت «نعيم» حاملة النرجيلة، ووضعتها أمام ياقوت وراحت تنفخ جمراتها المُتوقّدة. وما إن سحبت ياقوت نَفَسًا وأطلقته حتّى حملتني رائحةُ الدُّخان المُعطّر على مِحَفّةٍ من الأحلام والخيالات الغامضة، ورحت أتبادل الأنفاس مع عفاف على صدر ياقوت، الذي راح يعلو ويهبط ببطء.

❋ ❋ ❋

كانت عفاف قطرةَ فرح بيضاء في بيت السُودان، ولولا طباعُها الحادَّة وروحُها المتمرِّدة التي أجفلت الفتياتِ الهادئاتِ والمسترخياتِ بطباعهنّ، لتحوَّلت إلى إلهة في نظرهنَّ، فهن ما زلنَ يتعلَّقن بها ويُحببنها ويتفحَّصنَ شعرها المموَّج والقصير وبشرتَها البيضاء المشَّعة ومشاعرَها المُحتدمة، بينما كسرت هي الحاجزَ النَّفسيّ بينها وبينهن، بعد أن اطَّلعت على سرائرهنَّ الطيِّبةِ وأرواحهنَّ المرحةِ واللامباليّة وميلِهنَّ إلى المرح وعفويَّتِهن المطلقة. ولم تكن عفاف لتعبأ بالعالم خارج بيت السُودان والقِصَص التي باتت تسمعها عن تكالُب الناس وتدافعهم بالمناكب على الخبز بعد أن عضَّهم الجوعُ وأوغل الحصارُ في تعذيبهم وتغيَّرت أخلاقُهم، فقد وجدت في ياقوتَ، تلك المرأةِ الغامضة والقويَّة والنبيلة، ملاذًا من خوفها في حالات ضعفها النادرة، وهي تتذكَّر أباها الذي لا تعرف مصيره، أو تصغي إلى تأنيبي عندما أتَّهمها بالعوَق الأنثويّ وإهمال عواطفها وانشغالها المفرط بالسياسة، حتَّى كادت تنسى كونَها امرأةً. وفي لحظات صفائها النادرة، كنَّا نخرج في الظهيرات إلى البستان للعناية بألواح الرَّيحان التي زرعها الدكتور رياض وتتبُّعِ البلابل والإصغاء إلى تغريدها الشَّجيّ. ولم تكن لتصغي باسترخاء، بالنَّظر إلى فورة المشاعر داخلها واضطراب روحها القلقة، لكنَّني كنت أحاول تطويعها وإجبارها على الهدوء:

ـ استرخي يا عزيزتي. ما لكِ قلقة؟. انسَي قليلًا. أصغي إلى رقرقة الماء في الساقية، وهديرِ ماكنة الثلج البعيد، ورفيفِ أجنحة العصافير في قلوب النخل. هل تستطيعين؟

تنظر إليَّ بحَيرة، وألمح سواد عينيها العميقتين، ورموشَها المرتعشة مثل فراشات سُود، وأقرأ القلق فيهما.

ـ ما لكِ؟ ما الذي يُقلقلكِ؟

ـ أحسدكَ على تلك القدرة العجيبة، علاوي. نعم أحسدك بحقّ. ليتني أستطيع أن أكون مثلك مسترخيةً ولامبالية. لعلّي أجد السَّلام لروحي المضطربة. تعرف؟ منذ قدمت إلى بيتكم، وأنا منذهلة، وكلَّ يوم أكتشف شيئًا جديدًا: حُبَّكم؛ صدقَ مشاعركم؛ طيبَتَكم. لا أدري! أحيانًا أتساءل هل عشت السنوات الخمس والعشرين التي مرَّت تلك، حياةً غيرَ سويَّة؟ هل خمش خواءُ حياتي روحيَ؟ هل أحاول أن أعوِّض عَوَزي العاطفيَّ باندفاعي وتمرُّدي؟ ليتني مثلك، أعيش في كنف ياقوت. ليتهم عثروا عليَ مرميةً في القمامة والتقطوني. على الأقل، لصنعوا منِّي امرأةً حقيقيَّة غيرَ مُعابة.

ـ ما الذي تقولينه، يا عزيزتي. أنت امرأة حقيقيّة. أرجو ألّا تبالي بكلامي واتّهامي لك، بعكس ذلك، فأنا أحبـ...، أقصد أهتمّ بأمرك، وأرغب في تحريضك لتُظهري الأنثى التي في داخلك.

ـ لا، لا، كن شجاعًا وقلها. ماذا أردت أن تقول قبل قليل؟

ـ ماذا؟ قلت أهتمّ بأمرك.

ـ لا، قبل ذلك. أردت أن تقول كلمة وتردّدت.

ـ ماذا؟ يا لك من لئيمة.

اقتربت منّي، ونظرت إلى عينَيّ، ثمّ مسّدت شعري بيديها:

ـ هل تحبّ ياقوت؟

صدمني سؤالُها المباشر، فقد اعتدتُ على صراحتها وجرأتها في الواقع، لكنّ هذا السُؤال جعلني أتلعثم، ولا أعرف ما أقول. أمسكتُ رأسي بكلتا يديها وغرزت نظراتها في عينَيّ:

ـ ما لك تلعثمت؟ ألهذه الدرجة تحبُها؟

ـ طبعًا أحبُها. فهي بمثابة أمّي.

ـ علاوي، حبيبي، أجب بصراحة. فكلانا يعرف أنّ الأمر ليس كذلك!

ـ عمّ تتحدّثين أنتِ؟

ـ تعرف؟ أنت معطوب أيضًا. تدور مثل الفراشة المغلوب على أمرها حولها. لا تستطيع أن تقترب خوفًا من أن تحترق، ولا تستطيع أن تبتعد خوفًا من أن تتوه. اللّه يكون في عونك. أنا أقرأ لوعتك، يا عزيزي.

كانت تتحدّث ونظراتها مغروزة في عيني، ولم تترك رأسي الذي راحت تمسك به بكلتا يديها. وفي لحظة عابرة لمحتُ طيف حزن في عينيها الجميلتين. وقبل أن أسألها، تركتني واستدارت تداري طيف ذلك الحزن العابر، وراحت تتشاغل بنكش الساقية الصّغيرة بقدمها العارية. ومن بعيد تناهى إلى سمعينا هديرُ ماكنة الثلج الهرمة عند ضفاف الفرات، وصوتُ «صُمد» وهو يصفّر فوق السطح لطيوره التي راحت تحلّق في الفضاء راسمةً أقواسًا ملوّنةً في هجير الظهيرة.

كانت ياقوت تأخذ قيلولتها في غرفتها الكبيرة، فدخلنا محاذرَين إيقاظَها، وتمدّدت عفاف فوق بساط جانبي على الأرض، وبقيت واقفًا أنظر إليها وهي تتغطّى بعباءتها وتكوّر جسدها، ثمّ انسللتُ إلى السّرير، إلى جانب ياقوت، وتمدّدتُ، فوضعتْ ذراعها تحت رقبتي، وهي تسألني بصوت

ناعس:

ـ أين عفاف يا حبيبي؟

ـ ها هي نائمة على الأرض.

فنادت عليها وطلبت منها أن تأتي لتنام معنا على السَّرير. كانت ياقوت نائمة على طرف السَّرير، فتردَّدت عفاف قليلًا، قبل أن تنسل وتتمدَّد إلى جانبي، فشعرت باضطرابها، وهمستُ في أذنها:

ـ هل أخبر ياقوتَ بما قلتِه لي قبل قليل؟

ـ أشششششش. يا لوقاحتك.

شعرت ياقوت بتهامسنا فرفعت رأسها وأسندته إلى كوعها:

ـ ماذا هناك يا حبيبَيَّ؟

ـ لا شيء.

قالت عفاف وراحت تغطِّي رأسها بالعباءة وتكوِّر جسدها، ومدَدتُ يدي نحوها فردَّتها وضربتني. ضحكث ياقوت وقالت:

ـ أراكما تتناكفان. هذه من علامات الحبّ. هل تعرفان؟

لزمنا الصَّمت أنا وعفاف. وبعد قليل، نهضت ياقوت وغادرت الغرفة، فوبَّختني عفاف بشدَّة.

ـ أنت حقًّا طفل صغير. كيف تحرجني معها بهذه الطريقة؟ لو عدتَ إلى مثل هذه الألاعيب فسأخنقك بيدَيَّ هاتين. هل فهمت؟

ـ كيف ستخنقينني؟ وهل يطاوعك قلبك؟؟

ـ حسنًا، هكذا.

ونهضَت وصعدث فوقي، ووضعث يديها حول عنقي من دون أن تطبقهما، وشعرتُ بالحرارة فوق بطني. كانت تنظر إليَّ وقد تخشَّبث في انتصابتها، ثمَّ راحت تزحزح عجيزتها فوق بطني، وانحنت فوقي حتَّى لامست قلادتها أنفي، وغطَّى شعرها وجهي، وشعرتُ بشفتيها الممتلئتين تطبقان على شفتَيّ، ثمَّ سحبت العباءة فوقنا، وراحت تنزلقُ فوقي بحركات متوالية، فحاولت قلبها لكنَّها رفضث وتشبَّثت بقوَّة:

ـ أشششششش. لا تتحرَّك. ابقَ هادئًا.

واستمرَّت بحركتها حتَّى فرغت، ثمَّ ألقت برأسها فوق صدري وهي تلتقط أنفاسها، وراح عطرها المخلوط برائحة عرقها يضرب برأسي ويشلُّني، وشعرتُ بأنَّني أكاد أنفجر في تلك اللَّحظة. وكلَّما حاولت التَّحرُّك

أو قلبَها تتشبَّث بي وتلتصق بصدري. وبعد برهة، رفعتْ رأسها ونظرت إليّ، فرأيت عينيها وقد اكتستا حمرة غامضة:

ـ أيُها الوغد، هل ارتحتَ الآن؟ هل هذا ما كنت تريده؟ أن تُشعرني بفحولتك وتشهد ضعفي وموائي فوقك؟ هل أصبحتُ امرأة في نظرك الآن؟ ها؟

كنت متوتِّرًا، وجسدي كلُّه يرتعش، ولم أقوَ على النُّطق، فبقيت أتطلَّع إلى وجهها المعروق وعينيها الغامضتين، فشعرتْ باضطرابي:

ـ ما لكَ تخشَّبت؟

ـ أنتِ لا تفهمين. لقد أشعلتِني.

ـ حسنًا، تمتَّعْ باشتعالك، إذن.

ـ أرجوكِ، ارحميني. أنا...

ـ ولا كلمة. سأدعك تتعذَّبُ كما عذَّبتني وجرَرتني إلى هذه الرذيلة. ثمَّ، أنا لا أعرف كيف أطفئك. ماذا ظننتَ؟ أنا لا خبرة لديَّ بهذه الأمور. هذه أوَّل مرَّة أفعلها. هل تصدِّق؟!

ـ أنا لا أمزح، صدِّقيني. أنا أتعذَّب.

ـ وماذا أفعل لك؟ هل أنادي لك ياقوت؟

ـ يا لك من لئيمة.

ـ واللّه، لا أعرف ماذا أفعل. ما بك؟ ألا تصدِّق؟

ـ دعيني...

ـ اسكتْ، ويحك. أنا ما زلت بِكْرًا. ماذا اعتقدتَ؟ أنت تتَّهمني دائمًا بأنَّني لست امرأة. حسنًا، ربَّما أنا فعلًا كذلك. هذه أوَّل مرَّة أضعف بهذه الطريقة. هل ارتحتَ الآن؟

فُتح الباب فجأة ودخلت ياقوت ضاحكة كعادتها. وما إن رأتنا حتَّى أدركت بحَدسها أنَّ ثمَّة أمرًا ما قد حدث، فراحت تتساءل:

ـ ما بكما؟ ما الذي حدث؟ هل ما زلتما تتناكفان؟

غاصت عفاف في الفراش تحت الغطاء، بينما قرفصتُ على السَّرير مداريًا حَرَجي واضطرابي، فحدجتني ياقوت بنظرة متفحِّصة غاصت في أعماقي وعذَّبت روحي، قبل أن تجلس إلى جانبي، وتضع رأسي على صدرها، وتهدهدني بحنان.

ازدادت الحياة صعوبة في بيت السُودان نتيجة الحصار وتردّي الأوضاع الاقتصاديّة، وضاقت فسحة العيش بالنسبة إلى كثير من الفقراء، وراحت الفتيات ينسجن سلال الخوص التي يحاول «ضُمد» بيعها في سوق الماشية القريب في مقابل مبالغ زهيدة، وأخرج الدكتور رياض ألف دولار كانت مخبّأة بين طيّات ملابسه وأعطاها لياقوت لتستعين بها على أمور البيت، لكنّها رفضت بشدّة، وطلبت منه إرجاعها، وشعرت بالإهانة كما لو كان يدفع ثمن إيوائه في بيت السُودان طول تلك السنوات الملتهبة والمليئة بالأحداث والصَخب والعنف والقحط، فأطرق الدكتور رياض خجلًا، وقال متوسّلًا:

ـ كنت قد وفّرتها كي أستعين بها على الهرب خارج العراق. أمّا الآن، وبعد أن شارفتُ على الثمانين وأخذ منّي الوهنُ ما أخذ، فلا أرى جدوى من السّفر، فخذيها، أرجوكِ، واستعيني بها حتّى يُفرجها اللّه، ودعيني أشعر بأنّني منتمٍ حقًّا إلى هذا البيت الكريم الذي آواني واحتضنني في أشدّ فترات حياتي قسوةً ويأسًا، ولا تعذّبي روحي، يا ابنتي، أرجوك.

فأشفقت ياقوت عليه واحتضنته وراحت تقبل رأسه وتمسح دموعه:

ـ ويحي إن سبّبت لك الألم، عزيزي الدكتور رياض. ما أردت أن تشعر كما لو كنت تدفع ثمن بقائك بيننا، أنت من كرّمت البيت ببقائك بعد أن فتحتَ لنا صدرك، وواسيتَ أحزاننا، ولم تبخل علينا بنصائحك وآرائك النيّرة. وإذا كان الأمر يُريحك فهاتِ. سآخذ منك الألف دولار وأرفعها لك في الحفظ والصون، فما زالت الأمور ميسّرة، والحمد للّه على الرَّغم من الضائقة التي نمرّ بها في هذه الأيّام.

كانت الأسابيع والأشهر تَمرُّ بين شحٍّ وانفراج، وأخذ الجميع يبتكر أساليب جديدة للكسب، وراح «ضُمد» يبيع سلال الخوص وبعضَ منتوجات الجريد، مثل أقفاص البلابل، وبعضَ الجرار في النهار، ويذهب في اللّيل إلى عمله الذي لم يتقاضَ عنه أجرًا منذ شهور طويلة نتيجة الفوضى وشحّ الأموال لدى الحكومة، لكن هذا الأمر ما كان ليدفعه إلى التوقُّف عن الذهاب إلى موقع أور وقضاء لياليه الطويلة هناك وسط طقوسه وأساطيره وتخيُّلاته ورُقُمه الغامضة، والتي تخبره بما سيحدث من أمور، بينما راحت «عجيبة» تقرأ الطالع لنسوة الحيّ اللّواتي يحضرن خلسة في الظهيرات ويجلسن قربها في حجرتها نصف المُعتمة، فتطشّ قواقعها وحلزوناتها وحلقاتها الصدئة، وتقصّ لهنّ الحكايا في مقابل مبالغ

صغيرة. للعانس تقول ثمّة باب مُغلَق خلفه رجلٌ أبيضُ طويل بشارب معقوف يقف عليه الصقر. وما عليها سوى فتح ذلك الباب حين يُطرَق. ولتلك التي هرب زوجها إلى رفحاء عند تخوم السعودية خوفًا من النظام، تقول لها اغتسلي وتزيَّني كلَّ ليلة جمعة، وسيطرق البابَ ذات خميس، لكن لا تُثقلي عليه بالأسئلة وتعذِّبي روحه. خذيه بين ذراعيك مثلَ طفل، واغسلي قدميه بماء الورد، واصنعي له حساء الدجاج، وستدعين لي بالخير. وذاتَ يوم، جلستْ أمامها عفاف مكتئبةً حزينةً، وقالت «اقرئي لي طالعي، يا جدّة، لعلَّك تعرفين طريقًا لأبي». ولم تكن عفاف لتؤمن بما تفعله «عجيبة»، لكنَّها أحبَّت أن تسرّي عن نفسها وتواسيها بكلام «عجيبة» المعسول، والذي اعتادت تأليفه من مخيِّلتها، فجمعت الأخيرة الطشَّة بكفَّيها ورفعتهما في اتِّجاه عفاف، وطلبت منها تقبيلها ففعلت، ثمَّ طلبت منها أن ترمي بياضها فأخرجت خمسة دنانير ورمتها على البساط أمام عجيبة التي راحت تهَز الأحجار مرَّة واثنتين وثلاثًا قبل أن تطشَّها على الأرض، لتنتشر القواقع والحلزونات، ثمَّ تقول:

ـ انظري، يا ابنتي، هذا هو أبوك الذي ما زال حيًا، ولم يمت كما تتخيَّلين، لكنَّه مُحاصَر وخائفٌ، وثمَّة عيون كثيرة تترصَّده. انظري إلى كلّ هذه الحلقات التي تحيط به، إنَّها أزلام النظام وعيونُهم المترصِّدة. لكن، اطمئني، هو لم يغادر العراق، بل قريب في مكان ما هنا. أمَّا تلك الفتحة التي ترينها هنا، فهي الباب الخلفيّ المطلّ على البستان يا ابنتي. أبوك سيظهر ذات ليلة من أعماق البستان لتكحّلي عينيك الجميلتين بمنظره، فلا تحزني ولا تبتئسي، وليكن عندك أملٌ.

كانت عفاف تبكي بحرقة، ودموعها تسيل على خدّها، فاحتضنتها «عجيبة» بحب، وراحت تمسح دموعها قبل أن تطلب منّي مرافقتها إلى البستان لتتنشَّق الهواء المنعش، ونشاهد منظر الغروب معًا.

كانت العتمة قد ألقت بظلالها على البستان الكثيف، وبدأت أصوات اللَّيل تعلو. مزيج من نقيق الضفادع وأصواتِ صراصير الحقل ورقرقةِ المياه في السَّواقي الصَّغيرة ورفيفِ العصافير العائدة إلى أعشاشها، فجلسنا قرب السَّاقية، وكانت عفافُ حزينة ساهمة تنظر إلى عمق البستان:

ـ أعتذر عمَّا سبَّبته لك من عذاب، عزيزي علاوي. فأنا حقًّا غشيمة في مثل هذه المواقف، ولم أخض مثل تلك التجربة من قبل.

ـ لا عليك، حتَّى أنا لم أفعل.

نظرتْ إليّ فجأة وطيفُ ابتسامة عابرة على محيّاها:

ـ أبدًا؟

ـ أبدًا. حسنًا، أحيانًا تتبدّى لي خيالات من نوع ما، عندما أجوب الأزقّة في الظهيرات، أو أزور المقبرة.

ـ أيُّ مقبرة؟

ـ ...

ـ عن أيّ مقبرة تتحدّث؟ هل تزور المقابر أنت؟ ولِمَ؟

ـ لا أدري. أحيانًا أجدني منقادًا إلى تتبُع تلك المرأة التي تتّجه دائمًا إلى المقبرة، وهناك أتخيّلها تنضو ملابسها عنها وتقترب منّي و...

ـ علاوي!! ماذا تقول أنت؟ إنّك تخيفني بكلامك هذا.

ـ أنا آسف. صدّقيني، حتّى أنا لا أعرف إن كان الأمر حقيقة أم تخيُّلات.

ـ منذ وصولي إلى بيتكم وأنا أسمع أحاديث غريبة من هذا النوع.

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل حكاية تلك الغزالة التي تخرج من عمق البستان وتتطلّع إليك حزينةً باكية. لا تَقُلْ لي إنّ هذا وهم أيضًا!

ـ لا أدري. أحيانًا، يُخيّل إليّ أنّني ألمحها، مرّةً في عمق البستان وأخرى من عمق اللّيل البهيم عندما كنت في أور مع «صُمد». أتعلمين؟ رأيتها مرّةً خارجةً من عمق الصّحراء في اللّيل عندما كنّا نتناقش في محطّة المحاويل. هل تذكرين؟

ـ ماذا تعني؟ هل هي حقيقية، أم مجرّد تخيُّلات يرسمها عقلك الباطن؟

ـ لا أدري، صدّقيني. تعتقد ياقوت أنّها روحُ تقيّة.

ـ مَن هي تقيّة؟

ـ فتاة كانت تعيش معنا في البيت وطردتها ياقوت عندما اكتشفتها تراودني.

ـ يا إلهي. وماذا حدث بعد ذلك؟ وما علاقتها بتلك الغزالة؟

ـ لقد أقدمَتْ على الانتحار. ألقت بنفسها في النهر وغرقت، فصارت تظهر على شكل غزالة وتنظر إليّ من بعيد.

ـ أنت تخيفني بحقّ، الآن. لكن، ألهذا الحدّ تحبك ياقوت؟

ـ ليس كما تتصوَّرين. فهي لا تحبّ الابتذال، ولا ترضى بالسُلوكيّات المشينة.

ـ لكنْ، كيف تنظر إلى علاقتي بك؟ أخشى أن تكرهني أنا الأخرى.

ـ لا، هي تحبُك كثيرًا. لا أظنّ أنّها ستكرهكِ.

ـ تعرف؟ ياقوت امرأة استثنائيّة. جميلة وقوّيّة وواثقة بنفسها. لا يمكن ألّا يحبّها من يقترب منها ويعاشرها.

ثمَّ أردفت ضاحكة:

ـ حتّى أنا وقعت في غرامها. فما بالك أنت؟ اللّـه يكون في عونك يا مسكين.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ حسنًا، أنا لا خبرة لي بهذه الأمور، كما أخبرتك، ولطالما أنساني العمل السياسيّ حقيقةَ كوني امرأةً. لكنَّ الأمر مختلف عندكم في بيت السُودان. كلُّ شيء هنا يدور عن النِّساء. وأيُّ نساء؟! إنَّهنَّ غاية في الأنوثة والجمال والرِّقّة. ما حدث اليوم معك ذكّرني بالمرأة المدفونة داخلي، وأيقظ جوعي. يا لقبحي. المفترض ألّا أبوح لك بمثل هذا الكلام، لكنَّني اعتدت الصراحة معك تحديدًا. حسنًا، تسألني ما أقصد حين قلت إنَّني واقعة في غرام ياقوت. نعم، أحيانًا عندما أراها في ثياب النوم، وأرى جمال جسدها المشدود وبروزَ نهديها، وأسمع صوتها الذي يشبه الموسيقى، أتمنّى لو كنت رجلًا قويًا وآخذها في حضني وأقبّلها في كلّ بقعة من جسدها وأذوب فيها.

كانت عفافُ تتحدَّث وتتمثَّل المشهد حين تحتضن ياقوت بذراعيها، وتزمّ شفتيها حين تقبّلها بشغف ونشوة. وحين رأت علامات الدَّهشة على وجهي، توقَّفت عن الكلام ونظرت إليّ بجفول:

ـ يا لفجوري، لقد أسأت الأدب. أليس كذلك؟

ـ لا، لا بأس في ذلك، يا عزيزتي، أنا أعرف تأثير ياقوت السَّاحق فيمن يحبُها ويقترب منها. يحدث الأمر معي طوال الوقت.

ـ ما رأيك، إذن؟

ـ فيمَ؟

ـ في أن نكاشفها بالأمر!!

ـ يا لغرابتك! الآن كشفتِ عن فجورِكِ بحقّ.

أطلقت عفافُ ضحكة ماجنة واحتضنتني بقوّة مُحاوِلة تقبيلي.

ـ ماذا أفعل يا مجنون. أنتم أطرتم عقلي بجمالكم. لم أعتد على هذا الكمّ الهائل من الجمال والعذوبة في بيتكم. أنا فتاة برّيّة نشأت في كنف أبي نشأةً جافّة، ولم أتعلّم شيئًا عن حياة النّساء. كنت أنغمر في قراءة الكتب الماركسيّة، وأتعذّب مع أنّا كارنينا ولوليتا، وعندما يستنفر جسدي أطفئ اشتعاله بإصبعي وأنام. هنا، كلّ شيء حقيقي من حولي. عطرُ ياقوت الآسر؛ جسدُها السّاحر حين تتمايل، نبرتُها وهي تغنّي. حتّى ملابسُها الدّاخليّة المعلّقة تثيرني. ها؟ ما رأيك؟ هل ارتحتَ الآن؟ ها أنا أعترف لك بحقيقتي. هل تريد اعترافًا أكثر من هذا؟ حسنًا، أنا صرت أغار منك عليها. حين تنام إلى جانبها وتحتضنك. حين تُطعمك بيدها وتمسح رأسك. حين تخضك أنت، من دون الآخرين، بعنايتها وسعادتها وكنوزها، على الرّغم من أنّني عاجزة، حتّى اللّحظة، عن تفسير ذلك الحبّ الذي يجمعكما. اعترفْ، وقل إنّك هائم بها مثلي. كن شجاعًا، مرّة واحدة في حياتك وقل إنّك تتمنّى أن تذوب فيها.

ـ هل سيُريحك هذا؟

ـ نعم، اللّعنة. أنت غامض جدًا وبارد. ولا أُبالي وأنا أحترق.

ـ حسنًا إذن، أنا هائم بها.

ـ لا تَقُل ذلك كما لو كنت تريد إرضائي. أخبرني بحقيقة مشاعرك تجاهها يا حبيبي. أتوسّل إليك. لا تعاملْني مثلَ طفلة.

ـ حسنًا، قلت لكِ الحقيقة. أنا أهيم بها حبًّا.

ـ وهل اعترفتَ لها بهذه الحقيقة يومًا؟

ـ لا، لا أجرؤ في الحقيقة. مرّة اكتشفتْ استثارتي حين عانقتني وهي في ثياب النوم، وكانت صدمةً كبيرة لها.

ـ ماذا قالت؟

ـ عنّفتني أوّلَ الأمر، ثمّ استغرقت في التفكير العميق وهي تُدخّن، قبل أن تعود إلى النوم إلى جانبي وتهدهدني لأنام.

ـ فقط؟!!

ـ فقط.

ـ يا لضعفك وجبنك يا أخي. حسنًا، دع الأمر لي في المرّة المقبلة.

ـ ماذا؟ هل جُننتِ أنتِ؟

نهضت عفافُ ضاحكةً ونفضت عجيزتَها من التراب، قبل أن تجرَّني من شعري ونمضي في اتِّجاه البيت.

***

جفلت روح ياقوت عندما بدأت الحرب تقرع طبولها، وبات القلق يعرّش في رأسها، فما كاد بيت السّودان يخرج من الضائقة الماليّة التي تسبّبت بها الأوضاع الاقتصاديّة وظروف الحصار الظالم، حتّى راحت الطائرات الأميركيّة تمرح في سماء المدينة، وبدأت أصوات القنابل تُسمَع هنا وهناك، وعادت لهفتها وخوفها عليّ من جديد. وذات ليلة، عندما كانت تغطّ بالنوم، استدرجتني عفاف إلى الاحتكاك بها. وبينما نحن في غمرة هيجاننا تحت الغطاء، اكتشفتُ فجأة أنّ ياقوت تركن رأسها إلى كوعها وتنظر إلينا وهي تبكي بصمت، فتوارت عفاف، كعادتها، خلفي، بينما بقيت أنا وجهًا لوجه مع ياقوت التي رسمت ابتسامة غامضة على محيّاها، ثمّ مسحت وجهي المعروق بيدها:

ـ يا لصغيري، أنت تتصبّب عرقًا.

ثمّ مدّت يدها وراحت تربّت على عفاف وهي تحت الغطاء:

ـ عفو، يا حبيبتي. تعالي إلى حضني. لا تخجلي.

فحاولت عفاف التّظاهر بالنوم، لكنّها أذعنت في النهاية ومدّت جسدها فوقي، وراحت تعانق ياقوت التي احتضنتها ومسحت على رأسها:

ـ منذ متى وأنتما تفعلان ذلك، يا حبيبتيّ؟؟

رِمتُ بالصّمت، وبقيت متخشّبًا تحت جسد عفاف الذي بدا ساخنًا جدًا في تلك اللّحظة، فأعادت ياقوت سؤالها بطريقة مختلفة:

ـ هل تفعلانها بطريقة كاملة، أم...

فأجابتها عفاف وهي تدفن وجهها في لجّة شعر ياقوت.

ـ لا، نحن لا نعرف بعد. مجرّد حركات نُطفئ بواسطتها لوعتنا.

ـ هل تحبّينه؟

ـ علاوي؟ لا أدري. نعم ربّما. لست متأكّدة من مشاعري. ربّما هي رغبة أشعلتها أنوثتك الطاغية في رؤوسنا. فعندما تنام قربك نشعر كما لو كنّا ندخل معبد اللّذة المحرّمة.

ـ ماذا تقصدين، يا حبيبتي؟

ـ أقصد: وجودك معنا في السّرير وأنوثتك الطاغية يجعلاننا نهتاج رغبةً.

رفعت ياقوت رأس عفاف عن صدرها، في رقّة، ثمّ احتضنت وجهها

بكلتا يديها. وقالت متسائلة باندهاش:

ـ ماذا تقولين أنتِ؟ هل أنت واعية لكلامك، يا عزيزتي؟

فنظرت عفاف إلى عينيها مطوَّلًا وبدت مسبلة الجفنين هائمة بحقّ، وقالت:

ـ نحن نحبُّكِ ونذوب، كلانا، فيك، ألا ترين ذلك؟ ألم تكتفي من تعذيبنا كلَّ ليلة؟ أليس لديك قلبٌ مثلنا، أمْ أنَّ قلبك قُدَّ من الحجر؟

ـ أنا أحبّكما طبعًا، يا عزيزتي. وكلَّ ليلة أتمنّى أن أدخلكما في قلبي وأبقيكما فيه إلى الأبد. أنا سعيدة بوجودكما معي.

ـ لكنَّك تعذِّبيننا بحرماننا عشقَك. نحن نهيم بكِ حبًّا. ألا تفهمين؟

ـ حسنًا. وما المطلوب منّي أنا؟ وهل عليَّ معكِ في هذا؟

ـ نعم عليَّ يهيم بك أكثرَ منّي في الحقيقة، لكنّه لا يجرؤ على الاعتراف. أنتِ تعذِّبينه منذ سنوات، وهو يكتم لوعته وشغفه بكِ. لقد اعترف لي بذلك.

فنظرت ياقوت إليَّ متسائلة:

ـ هل هذا الكلام صحيح، حبيبي علاوي؟

ـ ...

ـ علاوي، حبيبي، أجبني. هل ما تقوله عفاف صحيح. لا تعذِّب روحي.

ـ نعم، صحيح.

صمتت ياقوت برهة، وجالت بنظرها في فضاء الغرفة نصف المعتمة، قبل أن تسند رأسها إلى وسادة عالية، وتقول:

ـ حسنًا، وما المطلوبُ منّي؟

نظرنا أنا وعفاف، أحدنا إلى الآخر، باستغراب وجفول، ثمَّ نَدَسْتني لأقول شيئًا، لكنّني لم أجرؤ. فأعادت ياقوت طرح سؤالها بهمس هذه المرَّة:

ـ ما بكما صمتُما؟ أخبراني: ما المطلوب منّي لأريحكما؟

بقينا صامتَين لا نَريم حراكًا ونحن نتابع انعكاس الضوء الخافت على وجه ياقوت الدَّقيق وغرَّتها المنفوشة، فعدَّلت وضع الوسادة خلف رأسها، وقالت:

ـ حسنًا، سأسهّل الأمر عليكما. هل تريدان مشاركتي في حركاتكما كي تُطفئا لوعتكما وشوقكما؟ هل تشتهيانني إلى هذا الحدّ؟

فحرّكنا رأسينا علامةَ الإيجاب.

ـ حسنًا، إليكما جسدي افعلا به ما تريدان إن كان الأمر يُريحكما. هل أنضو عنّي ثوبي؟

وراحت تنزع ثوبها الشفاف، فبان نهداها العاجيان اللّذان طالما أسراني، وراحت عفافُ تنظر إلى جمال جسدها غيرَ مصدّقة، وانتابنا الجفول، فاستدارت نحونا وقالت:

ـ ما بالكما؟ هيّا. ارتعا بجسدي الذي تتمنّيان. لن أوفّر شيئًا يُريحكما على الإطلاق. أنتما تعرفان معزّتكما في نفسي. حتّى لو كان الأمر يؤذيني ويُشعرني بالإهانة، لكنّني مستعدّة لمجاراتكما، ما دام الأمر يُسعدكما.

بقينا في ذهول وحرج، ولم نجرؤ على الحركة فترةً ليست بالقصيرة، بينما استلقت ياقوت مستسلمة بهدوء تاركةً الضوءَ الخافت يرسم تضاريس جسدها العاجي. وعندما طال انتظارها، نهضت واحتضنتنا نحن الاثنين وعانقتنا، فشعرتُ كما لو أن عمودًا حاميًا من رخام التصق بجسدي الجافل، ثمّ طبعت قبلة طويلة على شفتَي، قبل أن تشرئب بعنقها الطويل وتعانق عفافَ وتطبع قبلة على شفتيها أيضًا، فراحت الأخيرة تطبق على شفتي ياقوت المكتنزتين مُحاولة جزّها من رقبتها بقوّة حتّى انكفأت فوقنا وراحت تخلّص رقبتها من ذراعَي عفاف بحركة خفيفة. وما إن انتزعت فمها من فم عفاف حتّى همست ضاحكة:

ـ يا لكِ من ماجنة. يا للسانك الطويل هذا!

وبينما كانت عفاف جافلةً كما لو انتُزعت من حلم آسر، ربّتت ياقوت على خدّها، وقالت مداعبة:

ـ هيّا، ناما الآن وكفى لعبًا. تُصبحان على خير.

ثمّ أدارت ظهرها لي وسحبت الغطاء فوقها ونامت، بينما بقينا أنا وعفاف منذهلين من المفاجأة، لا نَريم حراكًا، ولا نقوى على الكلام.

✺ ✺ ✺

وجدنا ياقوتَ قد سبقتنا إلى المطبخ في الصّباح، وأعدّت لنا طعام الفطور، وراحت تُطعمنا بيدها كعادتها حتّى شبعنا، ثمّ طلبت منّا تحضير حقيبتينا للذهاب مع «صُمد» إلى أور خوفًا من اجتياح المدينة من قبل

الأميركان. أجفلَنا طلبُها أوَّلَ الأمر، وانتابنا شعورٌ غريب بالذَّنب، واعتقدنا أنَّ قرارها هذا إنَّما اتُّخذته نتيجة ما حدث اللَّيلةَ الماضية بيننا في السَّرير، لكن ياقوتَ ما كانت لتَتخذ قرارًا مثل هذا تحت تأثير تلك المشاعر التي تَعُدُّها عابرةً وغيرَ ذات شأن، وإنَّما كان بدافع الحرص على حياتينا، ولاسيَّما حياة عفاف التي عُرف عنها تطرُّفُها واندفاعُها في حال حدثت الحرب. وهكذا، حملنا حقيبتينا الصَّغيرتين واتَّجهنا إلى موقع أور مع «ضُمد» الذي شعر بالسَّعادة لمرافقتنا له، مُمنِّيًا النَّفس بصحبتنا في لياليه الموحشة هناك. وبكت ياقوتُ بحرقة وهي تودِّعنا عند أطراف البستان، كما لو كانت تودِّعنا لآخر مرَّة، وشعرتُ باضطراب مشاعري وأنا أعانقها حتَّى كدت أحطِّم جسدها بين ذراعَيِ الراجفتين، وانتحبتْ عفافُ على صدرها مدَّةً حتَّى سحبتُها. وعندما ابتعدنا قليلًا هتفت ياقوتُ وهي تبتسم وسط دموعها:

ـ أحبكما يا مجنونان. كونا في أمان لأجلي، ولا تخذلاني.

كنت مكتئبًا، طولَ الطريق، وروحي تتعذَّب، وضميري يؤنِّبني بحرقة كما لو اقترفتُ ذنبًا لا أعرفه. وكانت عفافُ تحاول تطميني ومواساتي، وتعدني بعودة سريعة إلى حضن ياقوت ما إن تنقضي المحنة. أمَا «ضُمد»، فكان يغِذُّ الخطى أمامنا حاملًا صرَّةَ الخبز والشاي والسكر، متلمِّسًا طريقَه بعصاه. كانت الشاحنات العسكريَّة تملأ الشوارع محمَّلة برجال الجيش الشَّعبي، وهي تتَّجه صوب طريق المرور السَّريع الذي قيل إن رتلًا عملاقًا، من المدرَّعات والدَّبابات وطائرات الأباتشي الأميركيَّة، بات يتسلَّقه صعودًا في اتِّجاه العاصمة، وكانت مهمَّة هؤلاء الرِّجال البؤساء التَّصدي له وعرقلته أو تأخيره قدر الإمكان، لكنَّه، بحسب فارِّين من البصرة، بمثابة أفعى حديديَّة عملاقة لا تُقاوَم، لا تفتأ تواصل زحفها الثَّقيل بعد أن تقوم الطائرات الحربيَّة وطائرات الأباتشي بتنظيف المساحات أمامها وحولها على مدى كيلومترات عدَّة. وبدأت الأنباء تتوالى عن موت المئات من المقاومين بنيران الطائرات في مواضعهم على جانبي الطريق، وثمَّة مفارز شرطة عسكريَّة تنتشر خلفهم لتلتقط الفارِّين منهم وتنفِّذ بهم حكمَ الإعدام الفوريَّ. وفي أور التي وصلنا إليها ليلًا، لمحنا هالةً عملاقة من الضوء تنبعث من جهة القاعدة الجوِّيَّة بسبب الحرائق التي اندلعت هناك في إثر قصف الطائرات الأميركيَّة، وسمعنا أزيزَ الرصاص ودويَّ الصواريخ التي راحت تتفجَّر في مستودعاتها نتيجة للحرائق. كان «ضُمد» غيرَ عابئ بما يجري، وراح يُشعل كانونه المُغطَّى بالرَّماد، ويعدّ قوري الشاي لنا، بينما

قرفصت عفاف عند طرف الفرشة وهي تتفحَّص مكوِّنات الشاخصة باستغراب وحيرة.

ـ تدبَّرا أمريكما بهذا الفراش اللَّيلة. سأشرب قدح شاي معكما قبل أن أقوم بجولتي اللَّيليَّة. لا تباليا بي. ربَّما لن أعود حتَّى الصَّباح. سأُحضر لكما خبزًا طازجًا وحليب ماعز.

قال «ضُمد» ذلك وراح يلفّ له سيجارة من كيس التبغ الذي في حوزته، وأخذت عفاف تسعل من الدُّخان المنتشر في الشاخصة بكثافة بعد أن نفخ «ضُمد» في النار، فناولتها قليلًا من الماء، وكانت أصوات الأعيرة الناريَّة والصواريخ تتوالى من جهة القاعدة، حتَّى اعتقدنا أنَّ ثمَّة معركةً طاحنة تدور هناك. وفي اللَّيل، غادر «ضُمد» في جولته اللَّيليَّة المبهمة، وبقينا أنا وعفافُ وحدنا، وكنت أفكِّر في طريقة ما لحلّ مشكلة الفراش الوحيد الذي سننام عليه، بينما أخرجت عفاف سيجارة وراحت تدخِّن أمام الشاخصة، متأمِّلةً الوهادَ المظلمة التي أنارت بعضَها هالةُ الضوء العملاقة. وبعد أخذ ورد، انحشرنا أنا وعفافُ في الفراش المتواضع، وعبثًا حاولت استثارتي وممارسة لعبتها الآسرة، بعد أن اكتشفت عطبي وعدم قدرتي على مجاراتها، كما لو كنتُ آلة باردة انتُزعت بطاريتها وباتت ميِّتة من دون حراك.

ـ ما بك؟ أنت لا تعمل إلّا في حضن ياقوت، يا ابن أمك؟!

ـ أنا معطوب من دونها كما ترين. هل صدَقتِني الآن عندما أقول لك إنَّني مسحور بها وبحضورها؟

استدارت إلى الناحية الثانية وحاولتِ النوم، فاحتضنتُها مواسيًا ونمنا محشورَين نطلب الدفء من جسدينا الجافلين في برد الصَّحراء. وصحونا في الفجر، مفزوعين على هدير الطائرات المرعبة وهي تحلِّق، على علوٍّ منخفض فوقنا، وفوجئنا بدرّة تلوذ بالشاخصة خوفًا من الأصوات المفزعة. كانت قد جلبت لنا الخبز الطازج وحليب الماعز، ووضعته في طبق من الخوص قرب الكانون المُنطفئ. وكانت رؤيتها عفافَ وهي تتكوَّر في حضني قد أثارت فضولها وتعجُّبَها على ما يبدو، لكنَّ خوفها من الطائرات أنساها كلَّ شيء في تلك اللَّحظة، فنهضتُ وطلبتُ منها أن تجلس قرب عفاف التي فوجئت بوجودها، ثمَّ سرعان ما ابتسمت لها وطلبت منها أن تقترب وتجلس إلى جانبها على الفرشة، ففعلت باستحياء أوَّلَ الأمر، إلّا أنَّ عفاف راحت تُطمئنها وتداعبها وتسألها عن اسمها. وما إن غسلت وجهي وعدت حتَّى وجدتهما قد تآلفتا وانطلق لسان درّة الصَّغيرة طليقًا بلهجتها

البدويَّة المحبَّبة، وهي تحكي لعفاف عن جَذيها الأسود الصَّغير الذي تُرضعه بزجاجة حليب مخصَّصة للأطفال، وكيف أطلقت عليه اسم «فاحم». خرجت عفاف وغسلت وجهها بالماء البارد المتبقّي في الإبريق، وعادت لتجلس معنا، وبدا وجهها أبيض وحاجباها طويلين وفمُها أقلَّ اكتنازًا من دون أحمر شفاه. لكنَّها، ببشرتها الصافية ونقاء لون عينيها، بدت أجملَ ما تكون. رفضت درَّة تناول الطعام معنا، وقرَّرت الخروج لتجمع معزاتها وهي تطلق نداءها الغريب، ورحت أغمس الخبز بالزبدة وأطعم عفاف التي راحت تنظر إليّ بدهشة كما لو كانت تكتشفني لأوَّل مرَّة، فبادرتُها قائلًا:

ـ تبدين أجمل من دون مساحيق.

فأطالت التحديق في وجهي.

ـ أنت غريب حقًّا. ألهذه الدرجة تؤثِّر فيك ياقوت؟!

ـ نعم، أنا معطوب بها، كما ترين.

عادت تقطع الخبز وتغمسه بالزُّبدة وتأكل بهدوء. ومن دون أن تنظر ناحيتي قالت:

ـ هل تعرف ما معنى أن تظهر المرأة للرَّجل من دون مساحيق؟

ـ لا، ما معنى ذلك. أفيديني!

نظرتْ إليَّ مبتسمة هذه المرَّة:

ـ يعني واحدًا من أمرين: إمَّا أن يكون حُبُّه قد ملأ روحَها واطمأنَّت إليه إلى درجة لم تعد معها في حاجة إلى تزييف حقيقتها، وإمَّا أنَّها لا تُقيم له وزنًا.

ـ وفي حالتي؟

ـ لا أدري. قل لي أنت: ماذا تعتقد؟

ـ لا أدري في الواقع. لكنَّني أراك جميلة، وعلى طبيعتك هكذا. وجهك يشبه صحن القيمر هذا.

نظرت إليَّ بطريقة مستنكرة:

ـ أنت تثير جنوني ببرودك، يا أخي. لو طار البرج الأخير من عقلي فستكون أنت السَّببَ بالتأكيد.

عادت الطائرات الأميركيَّة إلى التحليق بشكل منخفض فوق القاعدة، فجاءت درَّة راكضةً ولاذت إلى جانب عفاف التي احتضنتها

وراحت تمسح على رأسها وشعرِها الأشقر الشَّعث. وبعد برهة، قرَّرنا اصطحابها إلى بيت الشَّغر كي لا تفزع من هدير الطَّائرات. وفي الطَّريق، اتَّفقتْ معها عفاف على ضرورة زيارتها لنا يوميًا لتبدأ بتعليمها القراءةَ والكتابة، وكانت درَّة تشعر بالسَّعادة والغبطة وهي تُمسك بيد عفاف التي بدت، ببنطالها الجينز وكنزتها الصُّوفيَّة وقامتها القصيرة، مثلَ سائحة أجنبيَّة.

صبَّت عفاف، في طريق العودة، جامَ غضبها على الأميركان المحتلِّين والذين دنَّسوا أرض الحضارات، بحسب تعبيرها. وتعهَّدت بمحاربتهم مهما كلَّف الثمن وطردهم مدحورين، وأمضت ساعات الصَّباح الأولى تراقب القاعدة من أعلى الزقّورة وهي تقعي فيما يشبه المخبأ الحجريّ. وعبثًا حاولتُ تحذيرها من مغبَّة حماستها تلك، حتَّى جاء «صُمد» وراح يحكي لنا عن الخسائر الفادحة التي تكبَّدها المقاومون على الطَّريق السَّريع، وكيف أنَّ الأمريكان دخلوا المدينة وراحوا يتجوَّلون في أسواقها، والناس خائفون، بعضهم يرحِّب بهم على استحياء، والبعض الآخر يتوجَّس خيفة منهم. وكانت عفاف تغلي من الغضب والحقد عليهم. وعلى مدى ساعات النهار، كانت طائرات الشَّحن العملاقة تحطّ وتطير في القاعدة وهي تُنزل المعدات الغريبة والجنود وأكداس العتاد والأطعمة والمياه المعبَّأة الآتية من الكويت. نظر «صُمد» إلينا بعينيه الكليلتين، وقال وهو يلفّ لنفسه سيجارة:

ـ ألم أقلْ لكما؟ الرُّقُمُ تخبرني بكلّ شيء. هي لا تكذب أبدًا.

فطلبتْ منه عفاف أن يلفّ لها سيجارة، هي الأخرى، وقالت معلِّقة:

ـ ماذا تقصد، يا جدّي؟ بمَ أخبرتك الرُّقُمُ بالتَّحديد؟

لفّ «صُمد» السيجارة وقدَّمها إليها، ثمَّ ناولها الولاعة:

ـ دخِّني سيجارتك يا ابنتي، واسكبي لي قدحًا من الشاي وسأصحبكما إلى مخبئي، حيث أحتفظ بالرُّقم وأقرأها لكما كي تريا بنفسيكما وتصدّقا ما أقول.

خفّ هدير الطائرات العملاقة وتباعدت أصواتُ أزيز الرصاص والانفجارات الآتيةُ من جهة المدينة، وقادنا «صُمد» إلى مخبأ الرُّقُم، حيث خندقٌ شقّي يغور في أرض أور، حتَّى وصلنا إلى باحة ذلك المعبد المدفون، فأشعل مصباحه اليدوي وأدخلَنا، وكانت عفاف تمسك بيدي مندهشة من رؤية الهياكل العظميَّة المبعثرة وشظايا الآنية الفخاريَّة التي

تملأ المكان. وسرعان ما أقعى «ضُمد» على الأرض وراح يزيل طبقة التراب عن الرُّقم التي لفَّها بقطعة من المشمَّع، ثمَّ طلب منِّي أن أسلِّط ضوء المصباح عليها، وراح يتحسَّسُها بأصابعه الراجفة، ويقرأ:

ـ هذا هو اليوم الذي كنتُ أخشى؛ يومُ العاصفة ذاك، قد كُتب عليَّ وقُدِّر، هبط عليَّ مثقلًا بالدَّمع؛ اليومُ الذي كنت أرتعد منه، هبط عليَّ مثقلًا بالدَّمع؛ اللَّيلةُ التي كنت أرتعد منها، لأنَّ الأسى المُرَّ قد قُدِّر على أرضي وشعبي. حتَّى لو نشرت جناحَيَّ وطرت فوقها مثل رخ، فإنَّ أور ستُدمَّر فوق أساساتها، أور ستفنى في مكانها، حتَّى لو أنِّي صرختُ ونُحتُ. «يا يوم العاصفة ذاك عُد إلى صحرائك».

كان «ضُمد» يقرأ بتقطُّع وتعثُّر، لكنَّ العبارات التي كان يتلوها بدت كما لو كانت نبوءة تُتلى على لسانه. وعندما نطق عبارة «يا يوم العاصفة عُذ إلى صحرائك»، أصابنا الذهولُ، فقد أطلق الأميركان على حربهم السَّابقة اسم «عاصفة الصحراء»، واستمرَّ «ضُمد» في قراءة تراتيله الغريبة غيرَ عابئ بدهشتنا:

ـ بحرقة ذرفتُ الدُّموع، وبصدقٍ نُحتُ أمام إنليل، قلتُ له: عسى أور لا تُدمَّر، وعسى شعبُها لا يُسلَّم إلى الذَّبح، لكنَّه لم يُثلج صدري بكلمة وأصدر أوامره بهلاك أور وفناءِ أهلها، وفق القضاء النافذ. وراحت العواصف تزأر فوق الأرض، وفي جبهة الرِّياح أوقد النيران المتوهِّجة، فغطَّت أور مثلَ عباءة واكتنفَتْها مثلَ ملاءة كتَّان، وآلت المدينة إلى خراب، وجثتُ أهلها مثل كسرات الفخار ملأت جنباتها، والجدران المتينة تهاوَتْ، وفي بيوتها التي شهدت الغناء والرَّقص التهمت الحرائقُ النساءَ، وثرواتُ أور وُضعت عليها أيدٍ مُدنِّسة.

ثمَّ توقَّف والتفتَ إلينا:

ـ هل تفهمان شيئًا من هذا؟ هل يصعب تأويله في رأيكما؟

كانت عفاف تُمسك بذراعي وهي مذهولة، ثمَّ مدَّت يدها وأمسكت بالمصباح ووجَّهته ثانية إلى الرُّقم المرصوفة بعناية، وقالت:

ـ ما زال المعنى مشوَّشًا. هو يصل ولا يصل. هل تستطيع أن تقرأ لنا شيئًا بعدُ، يا جدِّي، لعلَّنا نتبيَّن الأمر.

عاد «ضُمد» إلى تلمُّس الحروف الغائرة على سطح الآجر:

ـ أيَّتُها الملكة اجعلي قلبكِ مثلَ الماء. أيَّتُها السَّيِّدةُ البارَّةُ التي

هُدمت مدينتها، كيف تقدرين على البقاء؟ بيتُكِ، الذي تحوَّل إلى رماد، لم تعودي سيِّدته. أغانيك تحوَّلت إلى نُواحٍ، وأنغامُك صارت إلى نشيج. قلب المدينة يبكي ونايُ القصب فيها ينوح.

توقَّف «صُمد» فجأة عن القراءة وأعاد لفَّ الرَّقيم بقطعة المشمع، وأعاده إلى مكانه فوق الرُّقُم الأخرى، ثمَّ أهالَ التراب فوقه وساواه مع الأرض، وعاد يتحسَّس طريقه إلى السلَّم المؤدِّي إلى خارج الفناء، فتبعناه متعثرين ونحن نتحاشى الهياكل والعظام المنتشرة. وفي الأعلى، فوجئنا بعاصفة ترابيَّة حمراء، كما لو أنَّ السَّماء اكتست بلون الدَّم، وانعدمت الرؤية أو كادت، فتلثَّم «صُمد» بشماغه ومضى في اتِّجاه العاصفة، بعد أن طلب منَّا ملازمة الشاخصة وعدم مغادرتها حتَّى ينجلي الغبار وتتَّضح الرؤية. كانت مشهدًا مرعبًا لم أرَ مثله في حياتي، تلك العاصفةُ الحمراء. لكنْ، على الرَّغم من ذلك، فإنَّ تحليق طائرات الأباتشي، التي كنَّا نسمع هديرها، استمرَّ طوال الوقت. فكَّرت عفاف في درَّة الصغيرة وحالها الآن في بيت الشَّعر المُهلْهل:

ـ قلبي يحترق لهفة عليها تلك المسكينة. ما الذي فعله هؤلاء الأنذال، يا تُرى؟

ـ العواصف الترابيَّة أمر شائع هنا في مثل هذا الوقت من السنة، يا عزيزتي.

ـ لا، ليس بمثل هذه الشدَّة واللَّون. قرأتُ مرَّة أنَّهم يرمون قنابل اهتزازيَّة في الصحراء فتسبِّب نوعًا من الارتجاج في التربة ينجم عنه مثلُ هذه العواصف لحجب الرؤية عن المقاومين.

مرَّت السَّاعات ثقيلة علينا ونحن نقرفص في الشاخصة، وامتلأت عيوننا وأنوفنا بالتُّراب، لكنَّ عفاف ظلَّت محتفظة برباطة جأشها وتَسُبّ الأميركان بين الحين والآخر، وبَدَتْ غير مبالية بالعاصفة بقدر حقدها عليهم. وفي اللَّيل، بعد أن اتَّضحت الوهاد قليلًا تحت ضوء القمر، قرَّرت الذهاب إلى بيت الشَّعر لتطمئنَّ على درَّة، فاضطررت إلى مرافقتها، محاذرَين إنارةَ المصباح اليدويّ. وبعد جهد ومعاناة، وصلنا إلى حيث بيتُ الشَّعر الذي اقتلعته العاصفة وبعثرت حاجيَّاته، وفي حفرة صغيرة خلف جَمَل بارك وجدنا درَّة وأمَّها تتبرقعان بعباءة تطوح بأطرافها الرِّيحُ، فأخرجناهما واصطحبناهما إلى الشاخصة. كانت أم درَّة امرأةً بدويَّة في الثلاثين من العمر، ممشوقةَ القوام ببشرة حنطيَّة ووجه حسن وجديلة طويلة تنسدل على صدرها، بينما لم نجد أثرًا لزوجها الذي قالت إنَّه خرج

إلى الصحراء بحثًا عن الكمأ قبل هبوب العاصفة. وفي اللَّيل، بعد أن انحسرت العاصفة، جاء «ضُمد» حاملًا أرنبًا بريًّا مذبوحًا سرعان ما غسلته أم درَّة وشكَّته بالأعواد ونشرته قرب النار، ثمَّ أخرجت الخبز وإبريق الشاي، بينما جلست درَّة فَرِحة بحضن عفاف التي راحت تحدِّثها عن المدرسة والكتب والأقلام، قبل أن تسأل «ضُمد» عن آخر الأخبار، فجلس متبرِّمًا قرب النار، وراح يلفُّ سيجارته بهدوء كعادته:

ـ يقولون إنَّ الرَّتل الحديديّ وصل إلى أطراف الحلَّة الآن، وليس هناك قوَّةٌ قادرة على إيقافه، على ما يبدو. كما أنَّ الأميركان بثّوا صورًا لدباباتهم وهي تربض في ساحة الاحتفالات الكبرى في قلب بغداد. يبدو أنَّ الأمر قد قُضي، يا ابنتي، والحكومة هربت، ولا أحد يعلم بمصير صدام. لكنَّ الأخبار المفرحة هي أنَّ جنود القوات البحريَّة في أمّ قصر ما زالوا يقاومون البريطانيّين وكبَّدوهم خسائر كبيرة.

انتصبت عفاف واقفة وراحت تدور في الشاخصة مثل لبؤة محاصَرة،

ـ ما بكِ، يا ابنتي. أراك ملتاعة؟

ـ نعم، يا جدّي. قلبي يحترق والحيفُ يأكلني من الداخل. لو كان معي سلاح لهجمت على القاعدة وقاتلتهم حتَّى أقتل هؤلاء الكلاب.

ـ هوِّني عليك، يا ابنتي. لا تُعالَج الأمور بهذه الطريقة. هؤلاء قوَّة غاشمة لا طاقة بنا عليها. انتظري حتَّى تنجلي الأمور ونتبيَّن النتائج. ربَّما يُسقطون صدام وينسحبون، كما وعدوا.

ـ وهل تصدِّق أكاذيبهم، يا جدّي؟ هم جاءوا ليبقوا وينهبوا خيرات العراق.

تناولنا جميعًا العشاء، في الشاخصة، واصطحب «ضُمد» درَّةَ وأمَّها إلى بيت الشَّعر، وأجبرتني عفاف على التسلُّل في الظُّلمة إلى تلّة مشرفة على القاعدة لتتفحَّص الأوضاع فيها. كانت الظلمة مُطبقة ولم نرَ شيئًا سوى بعضِ المصابيح الكشَّافة، وتناهى إلى سمعينا صوتُ موسيقى صاخبة ينبعث من هناك، فعدنا إلى الشاخصة من جديد. كان وجه عفاف وشعرُها معفَّرين بالتُّراب، وشعرت بحاجتها إلى الاستحمام، لكنَّ الماء الذي في حوزتنا قليل جدًّا، والبردَ قارسٌ خارج الشاخصة، فاكتفت بنفضه، ووضعت رأسها على الوسادة محاولة النوم، بينما بقيتُ مقرفصًا قربها وأنا أتأمَّل ملامحها الجميلة، وتخيُّلتها في بيت السُّودان حين تأخذ حمّامها

وتجفّف شعرها المموَّج القصير، ويتورّد وجهها الأبيض ويتألّق حاجباها الطويلان، فانحنيت فوقها وقبّلتها فوق عينيها المطبقتين.

ـ ألا تحاول النوم قليلًا؟

ـ بعد قليل، أشعر بالقلق.

ـ هل ما زلت تفكّر في ياقوت؟

ـ نعم، وبقية الفتيات. لا أدري ما حالهن الآن في ظلّ تلك الفوضى؟

فوجئنا في الصباح بعشرات الجنود الأميركان يجوبون تلال أور، ويعتلي بعضهم الزقّورة ويلتقطون الصُور، بينما وقفت مجنّدتان أمام الشاخصة تتطلّعان إلينا وتتضاحكان. كانت عفاف تتكوّر في حضني كعادتها متوسّدةً ذراعي، فصحونا على صوت الجَلَبة. وما إن جلستُ معتدلًا حتّى شهرتِ المجنّدتان سلاحيهما متحفّزتين، لكنّ الابتسامة لا تزال مرسومة على وجه كلٍّ منهما.

?Good morning. Who are you ـ

Good morning. I am Ali and this is Afaf ـ

?Welcome. What are you doing here ـ

جلست عفاف مفزوعة وهي تتطلّع إلى المجنّدتين وبقية الجنود الذين انتشروا في المنطقة من حولنا. وبعد أن استوعبت الصدمة، بادرت المجنّدةَ قائلة:

.What you are doing here? We are in our Conuntry ـ

فوجئت المجنّدة بردّ عفاف، وسرعان ما اكفهرّ وجهها ونادت على «سيرجنت» قريب منها، وأخبرته بالردّ غير الودّيّ لها. وفي لحظة، تغيّر أسلوبهم معنا، وداهمنا عددٌ من الجنود وقيّدوا أيدينا خلف ظهرينا، وجرُّونا جرًّا إلى ناقلة جُند تقف على مقربة، وسط سُباب عفاف التي عبثًا حاولتُ تهدئتها. وبقينا جالسَين في الناقلة نحو ساعة حتّى قرّروا الانسحاب إلى القاعدة، وهناك رمونا في مستودع مليء بأكياس الطحين وصناديق الأطعمة المُعلّبة. وبعد ساعة، جاء كولونيل بصحبة مجموعة من الجنود، بينهم مجنّدة سوداء، وأمر بفكّ قيدَينا، وراح يوجه إلينا بعض الأسئلة عن سبب وجودنا في الشاخصة. وبعد أن سمع قِصّتنا، طلب منّا التعاون معهم بصفة مترجمَين كون إنكليزيّتنا جيّدة، وكونهم في حاجة إلى خدماتنا، فاعتذرنا بدعوى الخوف، ثمّ قدّموا إلينا الطعام والماء. وفي المساء، قرّروا اصطحابنا إلى المدينة، حيث بيتُ السُودان، ليتأكّدوا من القِصّة. وفي الطريق، انفجر لغم زرعه المقاومون على حافّة الطريق وانقلبت الناقلة

وأصبنا برضوض وجروح طفيفة، وما إن خرجنا حتَّى انهالت علينا النيران من بناية قريبة، وجرتْ مواجهة حامية جُرحت في إثرها المجنَّدة السَّوداء وسقطت على جانب الطريق، بينما فرّ الباقون في اتِّجاه القاعدة، فتقدَّم منَّا المقاومون بحذر، وسرعان ما عرفوا عفاف وأخبرتهم بالقِصَّة كاملة، وطلبت منهم أسر المجنَّدة الجريحة، فحمَّلوها بسيَّارة نصف نقل ومضوا في اتِّجاه المدينة، وبقيت وحدي أعاني رضوضًا وجرحًا نازفًا في جبهتي، وقرَّرتُ السَّير في اتِّجاه البيت. كانت الشوارع مقفرَّة إلَّا من بعض السَّيَّارات المسرعة تخطف بين الحين والآخر، واضطررت إلى الالتفاف من خلف المدينة عبر بستان عبود حتى وصلت إلى البيت من الجهة الخلفيَّة، ورحت أطرق الباب. وبعد فترة ترقُّب وحذر، فتحته «نعيم»، وفوجئتْ برؤيتي والدَّمُ يغطِّي وجهي، فأدخلتني بسرعة، وراحت تنادي على بقية الفتيات اللَّواتي تجمعن حولي ورحن يغسلن الدَّمَ ويضمِّدن جرحي، ثمَّ سرعان ما قَدِمَتْ ياقوت راجفة واحتضنتني وراحت تقبِّلني وتمسح وجهي.

ـ يا لصغيري الحبيب. ما الذي جرى لك، يا حبيبي؟ ويح قلبي عليك. أنا السَّبب في كلِّ ما جرى لك. لن أسامح نفسي.

طمأنتُها، وحكيت لها الحكاية وما جرى، ثمَّ أدخلوني الحمَّام وغسلوني، وأعادوا تضميد جرحي وعلَّقوا ذراعي برباط، وأجلستني ياقوت في حُجرتها، بينما تجمعت الفتيات وجدَّتي «عجيبة» من حولنا، ورحن يسألن عن التفاصيل وعن مصير «صُمد» وعفاف. شعرت بدُوار شديد ورغبة ملحَّة في النَّوم، فمدَّدتني ياقوت على السَّرير وتمدَّدت إلى جانبي، وراحت تمسح رأسي ووجهي، وتقبِّلني بين الحين والآخر، حتَّى غفوت.

* * *

تصاعدت الأحداث، وشعرت كما لو كنت نمرًا جريحًا ومحاصَرًا في بيت السُّودان بعد أن أكلني القلق على مصير عفاف التي عمَّموا صورتها على نقاط التفتيش في عموم المدينة، ثمَّ سمعنا لاحقًا بأنَّ «صُمد» ما زال في أور ولم يعتقله الأميركان، وأرسل إلينا خبرًا بضرورة الحذر بعد أن جُنَّ جنون الأميركان وراحوا يفتِّشون المستشفيات بحثًا عن المجنَّدة التي اختطفتها مجموعة عفاف. كان عزائي الوحيد وجودَ ياقوت إلى جانبي، وكانت الأيَّام تمضي بتثاقل مشوب بالترقُّب والقلق. لم تسمح لي ياقوت بمغادرة البيت والبحث عن عفاف، فرحت أتسقَّط أخبارها عن طريق بعض الأصدقاء، بعد أن كثرت الشائعات بشأنها، فمنهم من يقول إنَّها هربت إلى

الأهوار، ومنهم من يقول إنَّها تقود المقاومة في المدينة التي استسلمت في معظمها للأميركان، وخصوصًا جماعة سيّد محسن التي راحت تتعاون معهم، وكان كل خوفنا أن يقودهم الأخير إلى بيتنا لتفتيشه.

طرق بابنا، في أحد الأيّام، شابٌّ في مقتبل العمر، وأخبر الفتيات بأنَّه يريد التَّحدُّث معي، من دون سواي. فأدخلنه إلى الباحة وخرجنا لرؤيته أنا وياقوت. كان قلقًا ومضطربًا، وراح يحدّثنا عن عفاف وبطولاتها، وكيف أنَّ مجموعتها قرَّرت إطلاق سراح المجنَّدة، لكنَّها في حاجة إلى مساعدة بسبب جرحها، وهي لا تستطيع السَّير، وتطلب منّي توصيلها إلى أور حيث يوجد «صُمد»، ومن هناك يمكن الطَّلب من الأميركان استلامها. كانت مهمَّة عسيرة ومحفوفة بالمخاطر، كما أنَّ الأميركان لن يفهموا أنَّني عنصر مساعدة ووسيط، وسيتَّهمونني حتمًا بالضلوع في اختطافها، ولاسيَّما أنَّهم رأوني مع عفاف عندما اعتقلونا في القاعدة. رفضت ياقوت الفكرة من أساسها، وطلبت من الشاب تبليغ عفاف باستحالة طلبها الأخطل هذا، فهي بذلك تجلب التُّهمة إلى بيت السُّودان كلِّه. لكنَّ عفاف لم تكن لتثق بأحد غيري لهذه المهمَّة، فغادر الشاب متلفِّتًا، وأغلقت فوز الباب وراءه، وراحت ياقوت تصبّ جامَ غضبها على عفاف وجنونها. وقالت وهي تضع ذراعها على كتفي:

ـ مَن تظنّ نفسَها تلك المجنونة. كيف يمكن لفتاة رقيقة، في مثل سنِّها، أن يخرج منها كلُّ هذا الشرّ؟ هل تقتضي الوطنيَّة إلقاء نفسها في التهلكة ومقارعة تلك القوَّة الغاشمة التي تعجز دول بأكملها عن مقارعتها؟ يا لسذاجتها وحمقها!

ثمَّ أمرت الفتيات بألّا يفتحن الباب لأيّ أحد مهما كلَّف الأمر، وصعدت بي إلى حجرتها لننام القيلولةَ. وكانت، على الرَّغم من تلك الظروف المقلقة التي نمرّ بها، على طبيعتها ورقَّتها وجمالها الأخَّاذ وعطرها المدوِّخ، وفي السَّرير راحت تسألني فيما لو أنَّني عملتُ شيئًا مع عفاف عندما كنَّا في أور، فأخبرتها بالحقيقة، وكيف أُصبت بالعطب بعيدًا عنها. لم تصدّق الأمر، وطلبت منّي أن أقسم لها، فأقسمت برأسها إنَّني لم أفعل شيئًا، ليس بسبب عدم رغبتي، بل بسبب عطبي الغريب، فاحتضنتني وقالت هامسة:

ـ سأحرِّرك، لو أفصحت لي عن حبّك لها ورغبتك في الزواج منها، يا حبيبي.

ـ وكيف ستحرِّرينني؟ هل أنا رهن اعتقالك؟!

ـ نعم، يا صغيري. أنت لا تفهم الأمر. أنا لا أستطيع أن أتخيّلك تنام مع امرأة غيري في سرير واحد وأنا أتنفّس الهواء. ألا تصدّق؟ ما بك؟

ـ وماذا تسمّين هذا الإصرار؟

ـ أحبُك، بل أعبدك يا مجنون. ألم تفهم بعد؟

ـ وأنا أحبُك أيضًا. لِمَ لا تسمحين لي؟

ـ أششششش. أنت لا تفهم. ثمّة أمور لا تفهمها. لقد ربّيتك في حضني مذ كنت طفلًا صغيرًا، فكيف أسمح لنفسي بمعاشرتك كما لو كنت رجلًا غريبًا. أنا أحترق من داخلي يا عزيزي. وأموت عشرات المرّات في اليوم لهفةً عليك. أريد أن أُدخلك كلّك في جسدي وأتوحّد معك. ليتني أستطيع أن أدخلك وأرتاح من هذا القلق واللّوعة التي تطحنني.

ـ لكنّك لست أمّي في النهاية، وأنا رجل ناضج الآن، وأنتِ امرأة ناضجة في قمّة أنوثتك وتفتُّحكِ، والفارق في السّنّ بيننا ليس كبيرًا كما ترين. فلِمَ تكتمين رغباتك وتعذّبينني معكِ؟ لقد صرتُ معطوبًا بحقّ. أنا لا أستطيع النّظر إلى أيّ امرأة أخرى من دون مقارنتها بكِ. لا توجد امرأة في الدُّنيا تضاهي أنوثتك وجمالَك وقوّتَك وحضورَك ورقّتَك. ألا ترين المحنة التي وضعتِني بها؟ ألم تعطفي عليّ وتريحيني من هذا العذاب الذي أنا فيه؟

ـ يا حبيبي، يا صغيري الغالي، ليأخذْني اللّه إن كنت عذّبتُك عن قصد. كلُّ ما في الأمر أنّنا وُضعنا في هذا الموقف المحيّر، أنا وأنت. ولا أدري كيف نخرج منه. فلا أنا أظلقك لرغباتك وشبابك وأنكفئ داخلي أداري حزني، ولا أنا قادرة على تلبية رغبتك وإهانة جسدينا. لكنّني أعدك بأن أخرج من حياتك قريبًا وأريحك منّي إلى الأبد.

ـ ماذا تقصدين؟؟ كيف ستخرجين من حياتي؟ هل تريدين أن أصاب بالجنون؟

ـ لا أدري. أشعر بأنّني سأتغيّر قريبًا. شيء ما في داخلي يُنبئني بأنّ ثمّة أمورًا ستتغيّر. كنت لأطمئنّ عليك وأنت مع عفاف. لكن تلك المجنونة رمت بنفسها في التهلكة، وأخاف عليك من اندفاعها وروحها الميّتة، يا حبيبي.

ثمّ راحت تحضنني وتقبّلني، وشعرت بشفتيها ترتجفان من التأثُّر هذه المرّة على غير عادتها، ثمّ راحت دموعُها تنهمر وأخذ جسدها يرتجف.

ـ ماذا هناك يا عزيزتي؟ هل من خطب؟

مسحت دموعها واعتلتني، ثمَّ نظرت في عيني نظرةً جافلة وشعرتُ بالرَّغبة المشتعلة في عينيها، فأشفقت عليها وطلبتُ منها أن تكفَّ عن معانقتي إذا كان في الأمر ما يُفزع روحَها.

ـ أششششش. اصمت ودعني أتشرَّب برائحتك. لا تراهنْ على ضعفي. فأنا الأخرى معطوبةٌ بك، كما ترى، ولا أستطيع منك فكاكًا. ليتني لم أعرفك. ليت «عجيبة» لم تحضرك في تلك اللَّيلة. من أين خرجتَ لي أنت لتسلب روحي. من أيّ عالم أتيت؟ مَن أبوك؟ مَن أمُّك؟ كيف لي التخلُّصُ من هذه اللَّعنة؟

ثمَّ طبعت قبلة طويلة جدًا على شفتي وأنا أشتعل، قبل أن تتركني وتجلس على حافَّة السَّرير لتدخِّن، وهي تحدِّث نفسها بما يشبه الهمس:

ـ أعِنِّي يا ربُّ على تجاوز هذه المحنة. ما ذنب هذا الولد المسكين ليتعذَّب بهذه الطريقة؟ لِمَ ارتضيتُ لنفسي موقفًا كهذا؟ لِمَ تماديتُ في محبَّته والتعلُّق به إلى هذا الحدّ؟ آآآآه، يا إلهي، أرجوك أعِنِّي وَجِدْ لي مَخرجًا من تلك المحنة. أرجوك.

أمَّا أنا، فكنت مختنقًا وأشعر بالدِّماء تغلي في شراييني، وأتعذَّبُ بحقّ وأنا أراها حزينة تكابد لوعتها وتقاوم نداء جسدها الصارخ. ولم أفهم السَّبب الحقيقي في ذلك. لم أفهم إصرارها على عدم الاستسلام لرغبتها القاتلة تلك. لم أفهم غموضَها وجنونَها في الواقع، فقرَّرتُ الخروج من الغرفة والنزول إلى باحة الدار للتَّحدُّث مع الفتيات والتخلُّص من احتقاني، فنادتني بصوت متوسِّل!

ـ إلى أين، يا حبيبي؟

ـ إلى الأسفل. أشعر بالاختناق وبحاجة إلى استنشاق الهواء.

فطلبتْ منِّي أن أقترب منها. وحين فعلت، أمرتني بأن أجثو على الأرض بين قدميها، فجثوت، ثمَّ أمرتني بتقبيل قدميها، ففعلت، ثمَّ كفَّيها، ثمَّ رأسها. وكانت تنظر إليّ بغموض يشوبه التَّوسُّل:

ـ قل أحبُّكِ.

ـ أحبُّكِ.

ـ قلها من أعماقك، يا صغيري. دعها تخرج من أعماقك حارقة ملتهبة.

ـ أحبُكِ بحقّ من أعماقي.

ـ حسنًا. لا تنسَ ذلك أبدًا، يا صغيري. والآن، اخرج لتتنشَّق الهواء. لكن إيَّاك أن تخرج إلى الشارع.

فذهبتُ، ونزلت إلى الباحة حيث تجلس الفتيات في العادة تحت عريشة العنب، فأحضرن لي الشاي، وكانت «نعيم» تجلس على البساط وتمدّ ساقيها الطويلتين أمامها. كانت ترتدي قميصًا قطنيًا أسود يكشف عن نصف صدرها وزنديها، وكانت كأجمل ما تكون، فوضعت رأسي على فخذها وهي جالسة على الأرض، وأغمضتُ عينَيّ، فراحت تداعب شعري، وتغرز أصابعها الرَّفيعة في غزّتي الطويلة، بينما جلست «شمَّة» وفوز على مقربة منّا تتهامسان.

قالت «نعيم» وهي تتلمَّس خدّي ورقبتي:

ـ يا إلهي، حرارتك مرتفعة، وجسدك مشتعل! ما الذي جرى لك؟

وبينما نحن كذلك، سمعنا طَرقًا خفيفًا على الباب الخلفيّ من جهة البستان، فجفلت الفتيات جميعًا، وتأهَّب الجميع ورحنا نُصيخ السَّمع بحذر. عاد الطَّرق الخافت من جديد، فتأكَّدنا من أنَّ ثمَّة أحدًا ما هناك، ولم نجرؤ على فتح الباب، فصعدت فوز إلى غرفة ياقوت وأخبرتها بالأمر، ثمَّ نزلت الاثنتان راكضتين، ووضعت ياقوت خدَّها على الباب لعلَّها تسمع حركة ما من دون فائدة. وبعد برهة، عاد الطَّرق الخافت من جديد، فأمرت ياقوت فوز بالصعود إلى السَّطح والتَّطلُّع إلى الأسفل. وحين عادت راكضة، أخبرتنا بأنَّ ثمَّة امرأة ترتدي عباءة تقف وحدها هناك، وتطرق الباب من حين إلى آخر، فأمرت ياقوت الفتيات بفتحه، وفوجئنا بامرأة سوداء مربوعة الجسم، حسنة الوجه، تتبرقع بعباءة طويلة وتزم أطرافها حول وجهها. ما إن رأتنا حتَّى جفلت وظلَّت تتطلَّع إلى وجوهنا. وبعد برهة، قالت لها ياقوت:

ـ تفضَّلي، هل لديك حاجة؟

ظلَّت المرأة متبلِّمة وتتطلَّع بنظرات ملؤها الخوف والرِّيبة، ثمَّ تلفَّتت صوب البستان بقلق بائن، وبعد تردُّد قالت:

ـ I am Nancy

ثم أشارت إلى البستان، وأردفت:

ـ Afaf

سقط الأمر بأيدينا وعقدت ألسنتَنا المفاجأةُ. أيُعقل أنَّ هذه المرأة هي المجنّدةُ المختطَفة التي قلب الأميركان المدينة كلَّها بحثًا عنها؟ ما تُرانا فاعلين بمثل هذه المفاجأة الصادمة؟ وراح الجميع يتطلَّع إلى وجه ياقوت التي بدت عليها علاماتُ الدَّهشة والحيرة، لكنَّها سرعان ما تمالكت رباطة جأشها وأفسحت المجال للمرأة كي تدخل، فدخلت بخطى متثاقلة وهي تعرج والألم بائن على وجهها الجميل، ثمَّ أغلقت ياقوت الباب وراءها، وراحت تقودها وتمسك بيدها لتساعدها، حتَّى أجلستها على الأريكة الخشبيَّة تحت العريشة. وما إن استقرَّت هناك حتَّى أزاحت العباءة عن رأسها وأسدلتها على كتفيها، فبان شعرها الطويل المضفور على شكل جدائل رفيعة، ثمَّ راحت تنظر إلينا محاولة رسمَ ابتسامة جافلة، فجلست ياقوت إلى جانبها على الأريكة، ووضعت ذراعها فوق كتف المرأة التي راحت تنظر بجفول إليها، ثمَّ سرعان ما ابتسمت وربَتت على فخذ ياقوت علامةَ الامتنان. كنت مندهشًا من المفاجأة وأنا أقف أمامها متطلِّعًا إلى وجهها الأسمر وبشرتها الناعمة وجسدِها المشدود على الرَّغم من امتلائه، وقد ألبسوها ثوبًا طويلًا ولفُّوا حول رقبتها شالًا أزرق. طلبت منِّي ياقوت التَّحدُّث إليها والتأكُّد من هويَّتها، فتقدَّمت بترذُّد، وسألتها عن هويَّتها وكيف وصلت إلى هنا، فأخبرتني بأنَّها فعلًا المجنّدة رقيب أوَّل نانسي أتش كوفن، من سلاح الاستطلاع الأميركيّ، وأنَّها مصابة بطلق ناري في فخذها، وأنَّهم أجروا لها عمليَّة جراحيَّة في مكان ما، وأخرجوا الرصاصة وضمَّدوا الجرح، وأنَّ مجموعة من الشُّبَّان أحضروها إلى أطراف البستان وأشاروا لها إلى بيتنا، وأخبروها بأن تقول لنا إنَّها من طرف عفاف.

لم تصدِّق الفتيات أنَّ تلك المرأة ذاتَ البشرة السَّمراء والتي تشبه بشرتهن، هي نفسُها المجنَّدةُ الأميركيَّة التي ذاعت قِصَّة اختطافها في المدينة. كنَّ يتصوَّرن أنَّها امرأة شقراء تشبه النساء الأجنبيَّات اللَّواتي يظهرن في التلفاز. أمَّا ياقوت، فقد ظلَّت ساهمة والقلق يأكلها بعد أن تأكَّدت من الورطة التي وضعتها فيها عفاف. وبعد ترذُّد، طلبت منِّي أن أسألها إن كانت تعاني الألم أو الخوف، أو تشعر بالجوع، فردَّت نانسي بأنَّ جرحها ما زال طريًا، لكنَّهم أعطوها حبوبًا مسكِّنة. وكلُّ ما تحتاج إليه الآن هو حمَّام ساخن فحسب، فصحبتها ياقوت إلى الطابق الثاني، وأمرت فوز بمساعدتها لتأخذ حمامًا ساخنًا، وأعطينها منشفة كبيرة وملابس نظيفة، بينما عادت ياقوت إلى لوم عفاف وصبِّ جامِّ غضبها عليها، وهي لا تدري كيف ستخرج من هذه المحنة التي وضعتها فيها. وبعد ترذُّد، طلبت منِّي الحديث إليها عندما تخرج من الحمَّام ومعرفة نيَّاتِها وخططِها ورأيِها فيما

جرى لها. كان النهار قد أفل وحلَّ اللَّيل، فجلسنا أنا ونانسي وياقوت وسط الباحة نتحدَّث. لم تكن نانسي قلقة أو خائفة، بل كانت مرتاحة وممتنَة لموقف ياقوت والفتيات الأخريات، وأخبرتني بأنَّ عفافَ طلبت منها عدم ذكرنا عندما تعود إلى القاعدة، وأنَّها تعوَّل عليّ في توصيلها آمنة إلى هناك، وطلبتْ منّي عدم القلق والاطمئنان لأنَّها لن تخبر أحدًا بما جرى لها في بيتنا، قائلة إنَّها لا يمكن أن تقابل الإحسان الذي قدَّمناه إليها بسوء، ثمَّ راحت تسرد لنا قِصَّة اختطافها وما جرى لها على أيدي مجموعة عفاف، وأبدت إعجابها بالأخيرة. وقالت إنَّ آخر ما تتوقَّعه أن ترى فتاةً شابَّةً ومثقَّفةً مثلَها تقود مجموعة من المقاومة، وأنَّ الدفاع عن الأوطان واجب مقدَّس، وهي تتفهم الأسباب التي دفعت المجموعة إلى اختطافها، لكنَّها أكَّدت أنَّها مجرَّد مجنَّدة في جيش الاحتياط كانت تعمل باحثة أحياء في ولاية أوهايو قبل تجنيدها وإرسالها إلى العراق، وكانت تعتقد أنَّ الأميركان جاءوا لمساعدة العراقيِّين للتخلُّص من صدام، وهي لا تحمل أيَّ ضغينة أو مشاعر كراهية لهم. أطمأنتْ ياقوت قليلًا إلى حديث نانسي التي جلست وسط الفتيات، ورحن يُطعمنها الأرزَّ واللَّبن الخاثر والسَّلطة، وكنَّ، في أثناء ذلك، يحدِّثنها بطريقة ساذجة بما يعرفنه من كلمات إنكليزيَّة متفرِّقة، فتقدَّم إليها «شفة» الطماطم، وتقول بطريقة مضحكة «ذِس إز غووود فور يو. كُلي. كُلي. لا تستحي». وكانت نانسي تضحك لطيبتهن، وتسألني عن سرّ تجمُّع كلّ هؤلاء الفتيات من ذوات البشرة السَّمراء في البيت باستثنائي، وكنت في حيرة من أمري، فكيف أفسِّر لها الأمر. وفي اللَّيل، فتحت فوز ضمادة جرح نانسي، فهالَنا احمرارُه والثقبُ العميق الذي خلَّفته الرصاصة قريبًا من عظم الفخذ، بينما كانت نانسي تستلقي بهدوء وتقول لي ضاحكة:

It was so big like my finger ـ

وتشير إليَّ بسبَّابتها، لكنَّ ياقوت شعرت بالقلق خوفًا من أن يكون الجرح ملوَّثًا، وأمرت فوز بالذهاب لإحضار ريسان المضمَّد الذي جاء راكضًا كعادته وعقَّم الجرح وحقنها بمضادّ حيويّ، قبل أن يستلم المبلغ من ياقوت، ويشير بيده إلى شفتيه علامةَ الكتمان، على الرَّغم من أنَّه لم يدرك أنَّ تلك المرأة المصابة هي مجنَّدة أميركيَّة على الإطلاق، بل اعتقد أنَّها قريبة إحدى الفتيات بعد أن طلبنا منها ألّا تنطق بحرف بالإنكليزيَّة عندما يحضر لعلاجها.

شعرت نانسي بالرَّاحة والاطمئنان، وأمضت اللَّيلة تجيب عن أسئلة

الفتيات بشأن ضفائرها وبشرتها وطبيعة الحياة في القاعدة وفيما لو كانت متزوّجة أم لا، حتّى طلبت ياقوت منهنّ تركها لترتاح وتنام ريثما ترى ما هي فاعلة بشأنها في الصّباح، فساعدتها فوز و«شفة» على الصُعود إلى الطابق الثاني وجهّزتا لها سريرًا نظيفًا فنامت، بينما عدتُ مع ياقوت إلى حجرتنا، حيث راحت تسألني فيما لو كنت مطمئنًا إلى كلام نانسي، أو إذا كانت ستغدر بنا بعد توصيلها إلى القاعدة، فطمأنتها، لكنّها ظلّت قَلِقة ولم تستطع النوم، وطلبت منّي الابتعاد عن مهمّة توصيلها وتكليف «ضُمد» بذلك، لكنّني أخبرتها بضرورة وجودي معها لتطمئن.

ـ أخاف عليك، يا حبيبي. هؤلاء الأميركان لا يحترمون عهودهم. لطالما سمعت بذلك. اللّعنة عليكِ يا عفاف. أهذا جزاء إحساني إليكِ، أيّتها المجنونة.

ـ لا تخافي، يا عزيزتي. ثقي بي. نانسي امرأة مثقّفة، وهي ممتنة لموقفك معها، ولن تخذلنا، صدّقيني.

ـ لا أدري. قلبي يُعتصر وروحي هائمة. لن أدعك تذهب معها وحدك على الإطلاق.

ـ ماذا تعنين؟

ـ سأصحبك، يا حبيبي. نعم. على الأقل سأكون مطمئنة عليك وأنا معك. حتّى لو خذلتنا وحدث ما حدث، على الأقلّ سأكون معك.

ـ لكنْ...

ـ خلص. انتهينا. لا أريد كلامًا في هذا الموضوع. نم، يا حبيبي ودعني أفكّر في الأمر.

ثمّ احتضنتني وراحت تهدهدني، فأغمضت عيني وحلّقت فوق غيمة عطرها السّاحر حتّى غفوت.

صدمنا، في الصَّباح، اختفاءُ نانسي من السَّرير، ثمَّ اكتشفنا أنَّها على السَّطح في عشِّ الحمام تتفحَّص طيور «صُمد» باندهاش وفرح، كانت تُمسك الحمامات، في رقّة، وتفرّد ريش أجنحتها بطريقة تنمّ عن خبرة ومعرفة، ثمَّ تقلب كل واحدة وتتفحَّص جنسها. وعندما طلبت منها النزول لتناول طعام الفطور رفضت وقالت ضاحكة:

ـ دعني في هذه الجنَّة. أُصغي إلى الهديل الآسر هذا، وأترقَّب الفراخ الصغيرة وهي تتلقَّف الطعام من مناقير أمّهاتها.

ـ ألا تريدين العودة إلى القاعدة، إذن؟

ـ ألست أسيرة عندكم؟ دعني في أسري اللَّذيذ هذا.

ـ لست أسيرة. أنت ضيفة فحسب.

نظرت إليَّ مليًا وهي تعيد فراخ الحمام إلى صفائح القصدير والقش، ثمَّ نفضت كفَّيها وقالت:

ـ ما هي قِصَّتك بالضَّبط؟

ـ أيُّ قِصَّة؟ ماذا تعنين؟

ـ الفضول يقتلني. ما علاقتك بهؤلاء النِّسوة السَّوداوات؟ أنت لا تشبههن. ولا تحاول إقناعي بأنَّ السَّيِّدة ياقوت أمّك الحقيقيَّة!

ـ قلت لكِ: تلك قِصَّة طويلة.

ـ لطالما اعتقدت أنَّ العرب ليسوا سُودًا.

ـ هم كذلك على ما أعتقد. لكنَّ العرق الأسود دخل العراق عن طريق تجارة العبيد في القرون الوسطى، كما أنَّ الإسلام دخل أفريقيا وكانت بغداد عاصمة للدولة العربيَّة الكبرى، وبالتالي كان يردها الكثير من الأعراق من غير العرب، وإن كان تمركزهم في البصرة وجنوب العراق أكثر بسبب القرب من الميناء الذي كانت التجارة تدخل من خلاله.

ـ وأنت؟

ـ ما بي؟

ـ أرى اهتمامًا ملحوظًا بك من الجميع.

ـ لا أدري. لسبب أو لآخر، وجدتُ نفسي في هذا البيت كابن لياقوت. هكذا نشأت على حبهنَّ.

ـ تعرف؟ لم أرَ امرأة سوداء بجمال السَّيِّدة ياقوت. إنَّها ساحرة

وحضورها طاغٍ. كما أنَّ الفتيات الأخريات جميلات أيضًا. ما زالت تلك الصُّور الصادمة تُدهشني. لقد رأيت في أيَّام أسري القليلة هذه أكثرَ ممَّا رأيته في حياتي كلِّها.

اقتنعت نانسي أخيرًا بترك عشّ الحمام والنزول معي لتناول طعام الفطور، وهناك وجدنا جدَّتي «عجيبة» قد أعدَّت القهوة والجبنة والبيض والخبز السَّاخن. كانت نانسي تنظر من حين إلى آخر إلى ياقوت التي ارتدت قميصًا رياضيًّا خفيفًا يُبرز نهديها ورقبتها الطويلة وقرطيها المتدلِّيين، فترد عليها الأخيرة بابتسامة مهادنة، ثمَّ مدَّت نانسي رقبتها وهمست لي كي أطلب من ياقوت السَّماح لها بالبقاء يومًا آخر عندنا. نظرتْ إليَّ ياقوت منتظرة أن أترجم ما قالته نانسي، وحين أخبرتها اتَّسعت ابتسامتها، وقالت:

ـ أنا الآن في نظر الآخرين خائنة لأنَّني آوي جنديَّة من جيش الاحتلال. لكنَّ الأمر في أعماقي ليس كذلك. لا أدري لِمَ لا أستطيع تفسير الأمر على هذا المنحى.

ثمَّ مدَّت ذراعها وعدَّلت وضع ضفائر نانسي المتهدِّلة أمامها، وقالت متسائلة:

ـ لِم تريدين البقاء عندنا مدَّةً أطول يا عزيزتي؟ ألا تريدين العودة السَّريعة إلى جماعتك القلقة عليك الآن؟

أمسكتْ نانسي بكفِّ ياقوت علامةَ العرفان، بعد أن ترجمتُ لها ما قالته، وأجابت:

ـ أريد أن أستمتع ببقائي معكم. طريقة حياتكم تُلهمني. كما أنَّ الطيور على السطح تثير فضولي لتأمُّلها عن قرب ومراقبة سلوكيَّاتها. إنَّه شغفي واختصاصي.

لم يكن أحد ليشكّ على الإطلاق في وجود نانسي بيننا في الحقيقة، كما أنَّ لون بشرتها ووجودها بين بقيَّة الفتيات اللَّواتي في سنِّها لا يدعان مجالًا للارتياب ما لم تتحدَّث الإنكليزيَّة. وفي الغالب، عندما تخرج من الباب الخلفيّ للتمتُّع بمنظر النَّخل الكثيف وأصوات البلابل، نطلب منها عدم التَّحدُّث والتزام الصَّمت، حتَّى إنَّ الدكتور رياض اعتقد أنَّها فتاة جديدة قدمت إلى بيت السُّودان من البصرة. وعندما سألها عن اسمها أخبرته «نعيم» بأنَّها خرساء. وحين أخبرته ياقوت بحقيقتها لاحقًا، لم يصدِّق الأمر، ثمَّ اقترح على ياقوت التطوُّع لتوصيلها إلى القاعدة

بمساعدة «ضُمد» لتجنيبي المخاطرة. وكانت ياقوت لتوافق لولا أنَّ نانسي رفضت وأبدت خشيتها، وأصرَّت على مرافقتي لها نتيجة ما نشأ بيننا من علاقة وتعارف وارتياح متبادل بسبب اللُّغة.

***

انقضى اليوم الإضافي الذي طلبته نانسي للبقاء معنا بين تأمُّل الطُّيور على السَّطح والتمتُّع بمنظر البستان خلف البيت بصحبة «نعيم» و«شقة»، وأحيانًا بصحبتي أنا وياقوت التي كانت تصغي إلى حديثنا وضحكاتنا من دون أن تفهم، وعندما أصرَّت نانسي على التَّوغُّل في البستان للتبوّل بطريقة برِّيّة، كما سمَّتها، جذبتني ياقوت إليها وهمست في أذني:

ـ خفَّ على البنية يا ابن أمك. هل تريد إيقاعها هي الأخرى في غرامك؟ لم يبق سوى أميركيّة تحبُّك كي يكتمل العقد.

نظرت إلى وجه ياقوت. لم تبدُ أيُّ علامات غيرة أو انزعاج عليه في تلك اللَّحظة، بل كانت تبتسم باطمئنان وثقة. وعندما طال تأمُّلي وجهها، مدَّت يدها ومسحت على خدي:

ـ يا لجمالك يا حبيبي وأنت تتحدَّث الإنكليزيَّة معها. أنت صغيري الذي يسحر الجميع. يا لقلبي الصغير. ماذا كنتُ لأفعل لولا وجودك في حياتي؟

قَدِمَت نانسي من عمق البستان مبتسمة، وهتفت:

I did it ـ

وعندما جلست ثانية قربنا، قالت ياقوت معلِّقة:

ـ يا لسذاجة هؤلاء الأميركان! فرحت لأنَّها بالت في البستان!

انعقدت في اللَّيل حلقةُ رقص وغناء على نطاق محدود لأوَّل مرَّة منذ اندلاع الحرب، بعد أن قرَّرت الفتيات عرض مواهبهن أمام نانسي وإطلاعها على طريقة عيشهن ووسيلتهن في كسب الرزق، بعد أن طلبن منها عدم التَّحدُّث بالإنكليزيَّة نهائيًا أمام جمهور الحاضرين. وزيادة في الحيطة، جلسنا أنا ونانسي على السَّطح لنطلَّ على الباحة من دون أن يرانا أحد، وكانت مأخوذة بما رأته من سحر وغناء ورقص، ولاسيَّما صوتُ ياقوت وتمايلُها الذي يسلب القلوب، وحركاتُ «نعيم» و«شقة» وبقيَّة الفتيات المتناسقة مع حركاتها.

ما إن انقضت السَّهرة وخرج جمهور المشاهدين، حتَّى كانت الدَّهشة تعقد لسان نانسي، وبدت عاجزة عن التَّعبير من فرط إعجابها بما رأت. ولم تكن مُصدِّقة أنَّ مثل هذه الطقوس تُقام في بيتنا، وفي مثل تلك الظروف الملتبسة. وازدادت دهشةً وإعجابًا عندما حضرت معنا الجلسةَ اللَّيليَّة على

السَّطح بعد أن تحمَّمت الفتيات وياقوت، وعُدن لمجالستنا بأثوابهنَّ الفضفاضة وشعورهن المفرودة وعطورهن الآسرة، ولاسيَّما عندما رحن يلعبن لعبة الصينيَّة الأثيرة عندهن وما رافقها من مفارقات ومرح. وشعرتُ كما لو أنَّ نانسي، من فرط اندهاشها وإعجابها بما تراه، لم تعد لديها الرَّغبة في مغادرة بيت السُّودان وأعاجيبه الصغيرة، بعد أن أسرَّتني برغبتها في الكتابة عمَّا رأته وعن تجربتها المثيرة في اليومين اللَّذين أمضتهما معنا، وطلبت منِّي تزويدها ببعض الصُّور لاحقًا. وأثار طلبها هذا مشاعرَ متناقضة داخلي، كما لو كانت تتوقَّع استمرار علاقتنا بها بعد عودتها. أمَّا ياقوت فكنت أشعر بقلقها واضطراب روحها وخوفها عليَّ على الرَّغم من محاولاتها إخفاءَ ذلك القلق بالتَّحدُّث إلى الفتيات ورواية الطرائف.

اصطحبتُ نانسي، في الصَّباح الباكر، بعد أن ودَّعتْ ياقوتَ والفتيات وقبَّلتهن واحدةً واحدة، وشعرتُ بحزنها لمفارقتهنَّ. كان «صُمد» يجلس معي في السَّيَّارة الصَّغيرة التي غنمها زيدان الحوذيّ وتركها أمام بيته قبل أن يختفي، بينما جلست نانسي متلفِّعة بحجاب وعباءة وفي حضنها صرَّة فيها حاجيات «صُمد» التي يأخذها معه في العادة عندما يذهب إلى موقع عمله في أور. وفي نقاط التَّفتيش التي صادفتنا، لم يكن الجنود العراقيُّون ليشكُّوا في هويَّة نانسي التي جلست في المقعد الخلفيّ صامتةً كما لو كانت ابنة «صُمد» العجوز الذي كان يعتمر عقالًا وشماغًا مرقَّطًا من النَّوع الشائع في المدينة، قال عنه ذات يوم إنَّه من بقايا لباس الكهنة السومريِّين الَّذين كانوا يعتمرون غطاءً أبيضَ من الكتَّان على رؤوسهم، ثمَّ يُلقون فوقه شبكةً سوداء تشبه تلك التي يصيد بواسطتها الصيَّادون السَّمك من الفرات، لتكون حاجبًا بين عقولهم والشياطين، حتَّى صارت لباسًا متعارفًا عليه في الجنوب.

ولا أدري إن كان أمر عدم شكّ الجنود العراقيِّين والأميركان في نقاط السيطرة التي مررنا بها في حقيقة نانسي، وهي تجلس هادئة في المقعد الخلفيّ، بسبب شبكة «صُمد» تلك، أم بسبب لون بشرتها، حتَّى وصلنا إلى موقع أور حيث شاخصةُ «صُمد»، وهناك طلب الأخير من نانسي الانتظار حتَّى حلول الظلام كي يوصلها خلسة إلى أطراف القاعدة الأميركيَّة، ثمَّ طلب منِّي توديعها والعودة إلى المدينة، فعانقتني نانسي بحرارة وقبَّلتني وهي تشكرني على ما قدَّمناه إليها من عون ومساعدة، ووعدتني بزيارتنا لاحقًا ما إن تتاح لها الفرصة ويشفى جرحها، وأخبرتني بأنَّها مَدينة لي بحياتها وأنَّها ليست حاقدة على عفاف، بل طلبت منِّي

إبلاغها تحياتها وإعجابها في حال صادفتها. وكان «ضُمد» يحثُّها على اختصار الوداع بالإنكليزيَّة وضرورة عودتي بسرعة إلى البيت قبل حلول الظلام. فربتُّ على خدّها وطلبت منها أن تعتني بنفسها، وأقفلت عائدًا بالسَّيَّارة المهلهلة التي كان رفرافها الأيمن يُطلق ضجيجًا وصريفًا حادَّين طولَ الطريق. وما إن وصلتُ إلى البيت حتَّى سمعت بخبر اعتقال عفاف وترحيلها إلى البصرة، فانخلع قلبي واعتصرتْ روحي، وكانت ياقوت أكثر من تأثَّر بهذا الخبر المفزع وراحت تنعى شبابَها وجمالها ويُتمها، وألقت باللَّوم على نفسها:

ـ لو كنتُ احتضنت البنية وروَّضتُ اندفاعَها لما حدث لها ذلك. فالمسكينة عاشت يتيمة من دون أمّ ولم تعرف طعم الحنان. كيف لم أنتبه لذلك؟ كيف سمحت لها بالتمادي في طيشها واندفاعها؟

وعبثًا حاولتُ طمأنتها وإقناعها بأنَّهم سيطلقون سراحها، إن عاجلًا أم آجلًا، فقد كانت تشعر بالتقصير إزاءها، كما أنَّ طبيعتها الرقيقة وحنانها قد أدميا قلبها على الرَّغم ممَّا فعلته عفاف بها فيما يتعلَّق بتوريطها في قضية نانسي. وفي غمرة اندفاعها، قرَّرتِ السفر إلى البصرة في محاولة لمقابلتها والاطمئنان عليها، وغابت ثلاثة أيَّام كاملة هناك أمضيتُها غارقًا وبقيةَ البنات في القلق والخوف عليها بعد أن رفضت مرافقتي لها خوفًا عليّ. كنت أنام في سريرها وأتخيَّل جسدها الدَّافئ، وأتسقَّط بقايا عطرها على الفراش، واكتشفتُ ضياعي وتيهي من دونها ومن دون روحها الفائرة ومحبَّتها الفيَّاضة، والتي اعتدت عليها كما لو كنت ولدًا صغيرًا، على الرَّغم من أنَّ الفتيات اللَّواتي أوصتهن بالعناية بي لم يقصّرن في شيء. لكن فقدها جعلني أدرك حجم حضورها الطاغي في حياتي وشدَّة تأثيرها فيّ. وتساءلتُ في سرّيّ ماذا لو اختفت لسبب أو لآخر من حياتي؟ ماذا تراني فاعلًا؟ ولم أطق تلك الفكرة على الإطلاق، بل لم أرغب في تخيُّلها حتَّى. وعندما عادت في اليوم الثالث متعبةً من السفر، عانقتها كما لو كنت أراها لأوَّل مرَّة، ورحت أقبِّل وجهها ويديها ورأسها وسط دهشة الفتيات الأخريات اللَّواتي تلقَّفنها بالأسئلة عن مصير عفاف وما آلت إليه، فأخبرتهن بأنَّها لم تتمكَّن من مقابلتها لأنَّ الأميركان منعوا مقابلات المعتقلين، لكنَّها سمعت أخبارًا مُطمئنة بشأنها، وأنَّهم قد يطلقون سراحها قريبًا، لكنَّها تعاني جزاء نذالة السجَّانين العراقيِّين تحديدًا، من المتعاونين مع الأميركان والإنكليز المنتشرين في البصرة، وقد أعطت أحد رجال الشرطة هناك مبلغًا من المال ليُدخل إليها السَّجائر وبعض الطعام. كانت ياقوت منكسرة

وحزينة بعد عودتها من البصرة. وعلى الرَّغم من أنَّها اغتسلت وتعطَّرت وجلست إلى صينيَّة الطعام معنا وأكلت القليل منه، فإنَّها كانت حزينة، وقلبها يُعتصر على مصير عفاف التي عدَتها، لسبب أو لآخر، منتمية إلى بيت السودان، ولاسيَّما بعد فرار أبيها واختفائه وبعد أن أصبحت يتيمة الأبوين كما تقول. وصارت الشغل الشاغل لها في الأيَّام التي تلت، وظلَّت تتسقَّط أخبارها من حين إلى آخر. وفي اللَّيل عندما تحتضنني في السَّرير، كنت أشعر بانكسارها وانبجاس دموعها بين الحين والآخر. كانت تتمدَّد إلى جانبي وتضع مرفقها تحت رأسها وتداعب شفتي وغرتي بجفول:

ـ يا حبيبي، يا روحي، انظر إلى حجم القسوة في هذا العالم الذي نعيش فيه. لهذا تراني أخاف عليك. انظر إلى عفاف المسكينة. هل تتذكَّر صخبها وشقاوتها عندما كانت تنام معنا في هذا السَّرير؟ هل تتخيَّل شغفها بالحياة وحبها المجنون؟ وانظر الآن أين هي مرمية؟ هل تأمن لهذه الحياة بعدُ يا صغيري؟ عندما أقول لك: لا يا حبيبي، يجب ألَّا تنجرف مع موجة الصخب والفوضى الحاصلة هذه، ذلك لأنَّ قلبي يُغلِمني بحجم الأخطار التي تحيط بنا.

ثمَّ أدارت وجهي ناحيتها، في رفق، وغرزت نظرها في عينيَّ، وقالت بما يشبه التوسُّل:

ـ عِذني، يا حبيبي، لو حدث لي شيء أن تجد عفاف وتحبَّها وتحاول أن تروِّض النمرة التي في داخلها وتحتويها. عِذني بأن تعيش معها وتحبَّها كما لو كانت أنا. هل تعدني؟

كانت نظراتها متوسِّلة ودموعها تجري على خديها، على نحو خمش روحي وأجفلها:

ـ ماذا تقولين أنتِ. ما الذي سيحدث لكِ؟ لِمَ تتوقَّعين ذلك؟ وكيف لي العيشُ بعيدًا عنكِ؟ إذا كان خوفك وقلقك على عفاف قد أوجعاكِ إلى هذا الحدّ، فلا تُجفلي روحي حتَّى ولو بمجرَّد فكرة غيابك عنِّي، أو خروجك من حياتي.

ـ لا يهمّ، يا حبيبي. لا يهمّ. عِذني مجرَّد وعد كي ترتاح روحي وتطمئنّ. لا أريد لتلك الفتاة اليتيمة أن تتشرَّد ويستغلَّها الآخرون. فالشرّ منتشر من حولنا، كما ترى.

ـ حسنًا، أعدك بذلك إن كان الأمر يُريحك، يا حبيبتي. لا تقلقي بشأنها. لكنْ، لا تُفزعي روحي وأنت تتحدَّثين عن غيابك من حياتي.

مرّت الأيّام ثقيلةً ومليئة بالقلق والترقُّب وتسقُّط أخبار عفاف من دون جدوى، حتّى جاء «صُمد» ذات ظهيرة وأخبرني بأنّ نانسي المجنّدة الأميركيّة قد مرّت عليه في شاخصته مع بعض الجنود، وطلبت منه إحضاري في اليوم التالي لتقابلني، فاشتعلتِ المخاوف في رأس ياقوت من جديد، ورفضت السّماح لي بالذّهاب إلى أور معه. وأقنعتها بعد شدّ وجذب بضرورة الذهاب، وأنّ نانسي، في ضوء ما رأيناه منها من ودّ وإعجاب، لا يمكن أن تخذلنا. وهكذا ذهبنا بالسّيّارة ليلًا أنا و«صُمد» إلى موقع أور، وأمضيت اللّيل معه، وفي الصّباح الباكر جاءت نانسي مع مجنّدة أخرى ومجموعة من الجنود الآخرين الذين انتشروا بعيدًا عن الشاخصة، فعانقتني وقبّلتني وعرّفتني إلى زميلتها، وجلسنا على فرشة «صُمد» نتبادل الحديث، وأخبرتني بقرب رحيلها إلى ألمانيا للعلاج، ووعدتني بمراسلتي، وسألتني عن ياقوت وبقية الفتيات. أخبرتها باعتقال عفاف في البصرة لدى القوات البريطانيّة، فحزنت ووعدت ببذل جهودها لإطلاق سراحها في أسرع وقت، ثمّ تحدّثت معي المجنّدة الأخرى، وكان اسمها ميريت، وهي شابّة شقراء طويلة القامة، عن رغبة الأمريكان في تعييني مترجمًا للعمل معهم في القاعدة بالنّظر إلى لغتي الإنكليزيّة الجيّدة، وما سمعته عنّي من نانسي بشأن هدوئي وتفهُّمي، لكنّني اعتذرت، بأدب، متحجّجًا بياقوت وقلقها عليّ والتباس الأوضاع في المدينة وتنامي نفوذ القوى الإسلاميّة المتصاعد، والذي يُنذر بردود أفعال متطرّفة، فتقبّلت الأمر مبتسمةً، وأخبرتني بضرورة الاتّصال بها عن طريق «صُمد» إن غيّرت رأيي، ثمّ شكرتني وغادرت الشاخصة، فنظرت إليّ نانسي وهي تبتسم:

ـ ما زلت معجبة بهدوئك. أنت لا تنتمي إلى هذا العالم.

ـ شكرًا لك.

ـ تعرف: لو كان الأمر بيدي لاصطحبتك إلى أميركا، لكنّني لا أريد أن أنتزعك من حضن السّيّدة ياقوت الجميلة. عفوًا، أقصد حضن أمّك.

ثمّ نهضت وعانقتني من جديد بحرارة هذه المرّة قبل أن تغادر الشاخصة، ورحت أشيّعها بنظري من بعيد. وعندما ارتقت التلّة المجاورة لوّحت لي، وهي تقول:

ـ لا تقلقوا بشأن عفاف. انتبه لنفسك، وعُد مبكرًا.

ودّعت «صُمد»، وعدت بالسّيّارة وحدي. وفي الطريق هالَتني كثرة الصُّور والشّعارات التي باتت ترفعها الأحزاب الإسلاميّة في الشّوارع والسّاحات، وفي البيت أخبرت ياقوت بوعد نانسي ومحاولتها مساعدة

عفاف، ففرحت كثيرًا.

ـ تعرف؟ لو فعلتها وأخرجت عفاف فسأصدّق ما ترويه عن طيبتها وإنسانيّتها.

نظرت بعينيها الوطفاوين الضاحكتين على الرَّغم من حزنها وقلقها، ففردت كفَّيها متسائلة:

ـ ما بك؟

ـ لا شيء. هل تسمحين لي بتقبيل عينيك؟

فأغمضتهما بدلال، وقرَّبث وجهها منّي وقبّلتُهما.

ـ لن تخدعني بحركاتك هذه، يا صغيري. ما زلتُ غاضبة منك. هل تعتقد أنّني لم ألحظ تقاربك مع نانسي؟ ماذا رأيت فيها مختلفًا، يا ترى؟ أم لمجرد أنّها أميركيّة؟

ـ عن أيّ تقارب تتحدَّثين أنتِ؟ لحسن الحظّ أنَّ كلّ شيء جرى أمامكِ.

ـ وماذا جرى بينك وبينها في أور؟ ها؟ أخبرني. أنت لا تستطيع أن تخفي شيئًا عنّي.

ـ ليس ثمّة شيء. قالت إنّها تتمنّى اصطحابي معها إلى أميركا لولا علاقتي بكِ.

ـ وإن كنتُ غيرَ موجودة، فهل كنت ستذهب معها؟

ـ عدتِ إلى هذا الحديث الموجع من جديد. قلت لك لا أريد أن أسمع شيئًا عن غيابكِ. ألا تفهمين؟ لا تثيري جنوني، أرجوكِ.

نظرتْ إليّ بتمعُّن، ثمَّ احتضنت وجهي بكفَّيها وقبّلتني.

جاء الدكتور رياض، في اليوم التالي، وطلب من ياقوت عقد حلقة للرَّقص والغناء في المساء بطلب من أصدقائه الذين اعتادوا حضور تلك الحلقات ليالي الجُمعات، بعد أن طال انتظارُهم، وتكالبت الهمومُ عليهم، وأغلقتْ أغلبُ المقاهي والبارات التي كانوا يمضون لياليهم فيها. كما أنَّ المدينة امتلأت برجال العشائر الذين قَدِموا مع الأحزاب الإسلاميّة وراحوا يفرضون ثقافتهم وتقاليدهم. كانت ياقوت متردِّدة وغير مرتاحة إلى مقترح الدكتور رياض، وحاولت الاعتذار منه بكلّ الوسائل، لكنّه أصرّ على عقد الحلقة، معتقدًا أنَّ العودة إلى ليالي الرَّقص والغناء قد تُسهم في حلّ الأزمة الماليّة التي بات يعانيها بيت الشّودان منذ مدّة، فوافقت على

مضض، وراحت الفتيات يرتّبن الباحة ويعلّقن المصابيح. وفي المساء، بدأ جمهور البيت بالتوافد تباعًا، ولأوّل مرّة لمحنا بينهم رجالًا غرباء لم نَرَهم من قبل، فتوجّست ياقوت خيفةً، وحدّثت الدكتور رياض متسائلة، لكنّ الأخير طمأنها ما دامت الأكثريّة هي من الزبائن المعتادين والذين يعرفهم ويثق بهم. وقرّرت ياقوت عدم المشاركة في الرّقص والغناء، مكتفية بالطلب من «نعيم» و«شفة» وفوز والأخريات إحياء اللّيلة، فسحرت «نعيم» الحضور برقصها الآسر، كما غنّت جدّتي «عجيبة» أغنية «صوت السهارى» بصوتها الصادح ذي البحّة المحبّبة، وهي جالسة وسط وسائدها الملوّنة، كما لو كانت إمبراطورة، وتمايل الحاضرون طربًا ونشوة. وكان الدكتور رياض يراقب الوضع بحذر، وما إن انتهى «ضُمد» من جمع المبالغ البسيطة في سلّة صغيرة، حتّى سمعنا هرجًا ومرجًا أمام الباب، ثمّ راح أحدهم يطرق بشدّة، فتململ الحاضرون محتجّين. وما إن فتح الدكتور رياض الباب، حتّى رأينا سيّد محسن ومعه مجموعة من الرّجال القرويّين، يهدّدون ويتوعّدون، مستنكرين الغناء والرّقص في مثل هذه الظروف التي تمرّ فيها المدينة، وطلبوا فضّ الحفل على الفور، فخرج له مجموعة من الرّجال الذين كانوا في الداخل وراحوا يتجادلون معه، ثمّ تصاعد الجدل والنقاش، وخرج من بين الجموع رجلٌ يدعى عجيل، وهو من زبائن بيت السُودان شبه الدائمين ويعمل في ماكنة الثلج، وانتزع عصًا من أحدهم وراح يلوّح بها طالبًا منهم العودة من حيث أتوا، فرفضوا، ونشب بين الطرفين شجار وصياح، ودفع عجيل سيّد محسن فوقع في ساقية آسنة، ثمّ أخرج أحدهم مسدسًا وراح يطلق النار في الهواء. في هذه الأثناء، مرّت دوريّة أميركيّة مكوّنة من مدرّعتين، وتوقّفت أمام بيتنا عندما سمع الجنود إطلاق النار، ففر جماعة سيّد محسن ودخل عجيل وجماعته البيت. كانت ياقوت تراقب الموقف بقلق واضطراب، وهي تتمسّك بي، ثمّ طلب الدكتور رياض من الجميع المغادرة عارضًا عليهم إعادة نقودهم إليهم لأنّ الفتيات لم يعدن في مزاج يسمح لهنّ بالرّقص والغناء بعد ما حدث، لكنّ الجميع رفض استرداد نقوده، وعرضوا على الدكتور رياض الحماية، ورجوه أن يرسل في طلبهم على الفور في حال تكرّرت مضايقات سيّد محسن، فشكرهم، وخرج الجميع وأغلقوا الباب وجلست الفتيات في الباحة يتصبّبن عرقًا، غيرَ مصدّقات ما حدث. قالت «نعيم» وهي تمسح رقبتها بشالها الملوّن:

ـ لن يكفّ هذا المأفون سيّد محسن عن مضايقتنا. ليت عجيل شجّ رأسه العَفِن وأراحنا منه.

ثمَّ نظرت إلى ياقوت التي جلست ساهمة، وقالت:

ـ ما رأيك يا عمَّتي؟ هل أطلب منه ذلك؟

ـ يا لغبائك يا عزيزتي! وهل تعتقدين أنَّ هذا سيحلّ المشكلة؟ بالعكس، ستتعقَّد أكثر. لست مرتاحة إلى تنامي نفوذه في المدينة. أين ذهب الشرفاء الذين ضحُّوا بدمائهم في الانتفاضة؟ أين اختفى زيدان الحوذيُّ وجماعته؟ كيف تمكَّن مثل هؤلاء الشذّاذ من السيطرة على المدينة والتحكُّم في مصائر الناس؟

ثمَّ نهضت وطلبت من الفتيات دخولَ الحمّام والاغتسال والتعطُّر ونسيان الأمر، وفي اللَّيل عبثًا حاولن إخراج ياقوت من شرودها بعد أن جلست تدخِّن نرجيلتها بصمت. وبين الحين والآخر، تمدّ يدها نحوي لتمسح على رأسي أو تعدّل وضع غرّتي.

وفي صباح اليوم التالي، طرقتِ البابَ امرأةٌ غريبة ممتلئةُ الجسد كحيلة العينين. وما إن فتحت لها فوز، حتَّى دخلت وجلست على الأريكة في الباحة وطلبت قدحًا من الماء، ثمَّ أخبرتنا بأنَّ عفافَ قد أطلق سراحها وهي موجودة في المدينة، لكنَّها لا تريد القدوم إلى البيت خوفًا علينا من المشاكل، فاقتربت ياقوت منها غيرَ مصدّقة، وراحت تتساءل:

ـ من أنتِ؟ وكيف عرفت أنَّ عفافَ قد أطلق سراحها؟

مسحت المرأة وجهها الأبيض، وقالت:

ـ كنت معها في المعتقل وقد خرجنا معًا يوم أمس.

ـ وهل أنتِ من جماعتها؟

نظرت المرأة ثانية في وجوهنا المتحلّقة حولها، وردّت ضاحكة:

ـ لا عيني لا. لا علاقة لي بجماعتها. كلّ ما هناك حدث سوء فهم واعتقلونا عندما كنَّا في البصرة، وفي المعتقل تعرَّفت إليها.

ـ وأين هي الآن؟

ـ في مكان آمِن. لا تقلقي. طلبت منّي أن أخبر علاوي.

ثمَّ نظرت إليَّ مليًا، وسألت مبتسمة:

ـ أنت علاوي، أليس كذلك؟

وقبل أن أجيب نهرتها ياقوت محتدَّة:

ـ دعي علاوي في شأنه الآن، وأخبريني: ما الذي طلبته عفاف بالضبط؟

لكنَّ المرأة استمرَّت في التَّطلُّع إليَّ كما لو أنَّها لم تسمع تحذير ياقوت، وقالت:

ـ نعم، أنت علاوي أكيد. فديتك.

ثمَّ التفتت نحو ياقوت المستنفرة وقالت:

ـ لا داعي للقلق، يا عيني. كلّ ما هنالك أنَّها طلبت منّي أن أدلّ علاوي على مكان ليلتقيا فيه.

فقالت ياقوت محتدَّة:

ـ أين هذا المكان؟ وما اسمك أنتِ؟ أليس لديكِ اسم؟

ـ اسمي صبريَّة. وقد أوصتني عفاف بعدم كشف المكان تحسُّبًا. كُوني مطمئنة. سأصحب علاوي ليرى عفاف وأعيده سالمًا. أنتِ لا تعرفينني، لكنَّني بعشرة رجال، وستتأكَّدين من هذا.

ودَّعتنا صبريَّة وخرجت تاركة ياقوتَ في حيرة من أمرها، فهي لم ترتح إلى منظرها وشكلها وطريقتها في الكلام، الأمر الذي أثار قلقها وراحت تناقش الفكرة مع بقية الفتيات وجدَّتي «عجيبة»، فنصحها الجميع بضرورة السماح لي بمرافقة تلك المرأة عندما تأتي غدًا، كما اتَّفقنا معها، وألّا تدع خوفها عليَّ يفوّت فرصة التَّعرُّف إلى مصير عفاف وسماع أخبارها. لكنَّ ياقوت ظلَّت متشكّكة ولم تنم تلك اللَّيلة، واكتفت بمراقبة السَّقف تارةً، وتأمُّلي وأنا نائم إلى جانبها تارةً أخرى، وسألتني إذا كنت مطمئنًّا إلى تلك المرأة وشكلها المريب، فأخبرتها بحقيقتها كما أتخيَّلها، وقلت لها إنَّها مجرَّد بائعة هوى، ربَّما صادف اعتقالها مع عفاف فتعرَّفت إليها هناك، وهي مضطرَّة إلى اتّباع هذه الطريقة حرصًا علينا، وإنَّني لا أجد ضيرًا في الذهاب ومعرفة الحقيقة ولقاء عفاف والاطمئنان عليها، وربَّما إقناعها بضرورة العودة معي إلى البيت حتَّى لو كان ذلك سرًّا عبر البستان، من دون أن يعلم بها أحد. ثمَّ إنَّ لا خوف عليها ما دام الأميركان أنفسهم قد أطلقوا سراحها بعد أن عجزوا عن إثبات أيّ شيء ضدها. في الحقيقة، كنت أنا نفسي قلقًا ومتحيِّرًا، ولا أدري إذا كانوا قد أطلقوا سراحها لعدم ثبوت شيء ضدها، أم بسبب تدخُّل نانسي كما وعدت. كما أنَّني لست متأكّدًا من ردود أفعال عفاف، التي لا يمكن التنبُّؤ بها على الإطلاق. ومع ذلك، أشعر برغبة عارمة في رؤيتها والتَّحدُّث إليها، وطمأنة ياقوت عليها.

لا أدري كم من الوقت استغرقت في النوم عندما صحوت على أنفاس ياقوت وهي تُلهب وجهي ورقبتي. كانت مستيقظة طوال اللَّيل،

تتأمّلني بوَلَه وتقبّلني بين الحين والآخر.

ـ لِمَ لا تنامين قليلًا، يا حبيبتي؟ لِمَ هذا القلق؟ كيف أجعلك تطمئنين؟

عدت إلى النوم من جديد، وعندما صحوت متأخّرًا في الصّباح وجدت ياقوت تغطّ في النوم بطريقة فوضويّة، وترمي ذراعيها فوق رأسها، وبرز نهداها بتألّق فادح في ضوء الصّباح المهادن المتسلّل من النافذة، فجلست على السّرير إلى جانبها متأمّلًا تقاطيع وجهها الدّقيقة، وإطباقة جفنيها وحلمتيها المنتصبتين مثل حبّتي فستق تحت قميصها الشفاف، وتحسّست جسدها بأصابعي الراجفة كما لو كنت أتحسّس هيكلًا مقدّسًا، ثمّ تململتْ وأطلقتْ تنهيدة طويلة قبل أن تلقي بذراعها فوق بطنها وتعود إلى النوم، فخرجتُ وغسلتُ وجهي وعدت ثانية إلى تأمُّل جمالها النائم كما لو كنت أراها لأوّل مرّة، ثمّ قبّلتها فوق شفتيها ونزلت لأتناول فطوري، وطلبتُ من الفتيات عدم إيقاظها حتّى عودتي. وبعد ساعة طرقتْ صبريّة الباب ودخلت مثيرة صخبها وضحكاتها في الباحة وسط دهشة الفتيات الجافلات من فرط مجونها، وهي تتحدّث إليّ من دون تحفُّظ وتمتدح جسدي وطول قامتي. وما إن هممت بالخروج معها حتّى جرّتني «نعيم» جانبًا، وطلبت منّي أن أكون حذرًا، فطمأنتها وخرجت. وما إن استقرّت على المقعد الأمامي إلى جانبي حتّى سألتها عن وجهتنا، فأجابت من دون أدنى اهتمام:

ـ سوق الماشية.

كانت سوق الماشية في المدينة من أكثر المناطق اكتظاظًا بالمتسوّقين في مثل هذا الوقت من النهار، وهي منطقة مفتوحة على عدد من الأسواق الشعبية المتداخلة والفنادق الرخيصة والمقاهي التي يرتادها في الأغلب رجالُ العشائر من تجّار الماشية والحمّالون ورجالُ الشرطة واللُّصوص والمتشرّدون والسماسرةُ والقوّادون وغيرهم. وكان الزحام يشتدّ كلّما اقتربنا من المنطقة ذات الأزقّة الضيّقة والتي تنحشر فيها العرباتُ والمارّة. وبعد معاناة شديدة لم أستطع التقدُّم أكثر بالسّيّارة نتيجة لتكاثر العربات المركونة على جانبي الطريق الذي راح الحمّالون يجتازونه وهم يحملون أكداس البضائع وأقفاص الطيور على ظهورهم العارية. كان الجوّ خانقًا والحرُّ على أشدّه. عدّلت صبريّة وضع عباءتها ومسحت العرق عن جبينها ورقبتها بيدها ، ثمّ أخرجت رأسها من النافذة وصاحت على أحد الحمّالين يجرّ عربة محمّلة بصفائح التمر المكبوس. كان

يواجه صعوبة في تحريكها بعد أن انغرست إحدى عجلاتها في ساقية آسنة:

ـ ليس لدينا النهار بطوله أيُها الأحمق. هذا شغل الحمير. هل أصبحتم تنافسون الحمير في رزقها.

نظر الحمّال إليها بغضب من تحت حاجبيه اللّذين ينقُط العرق منهما، وأراد أن يردّ عليها، لكنّه كظم غيضه عندما رآني وراح يعالج العربة من جديد، قبل أن يهرع نحوه شابّان كانا يجلسان في المقهى ويساعدانه في تخليصها من الساقية.

ـ لِمَ تعنّفين الرجل المسكين بهذه الفظاظة؟

نظرت إليّ ضاحكة وهي تهوّي زِيقها لتدخُل الهواء إلى ثدييها بطريقة فاضحة.

ـ إنّهم حمير. ألم تره كيف كان يجرّ العربة مثل الحمار؟

ـ مهما يكن، فما كان ضروريًا التلفُّظ بكلمات نابية بحقّه. المسكين، لو لم يكن مضطرًا لما فعل ذلك. أليست في قلبك رحمة؟

نظرت إليّ من جديد وغمزتني بطريقة غريبة:

ـ عيني، نعرف أنت يساري وتناصر الشغيلة. لكنّ هؤلاء ليسوا بروليتاريا. هؤلاء مجرّد حمير.

قلت ضاحكًا:

ـ من أين تعلّمتِ البروليتاريا هذه؟

ـ لِمَ تستغرب؟ الذي يعيش في السجن ثلاثة أشهر مع عفاف يتعلّم كلّ شيء.

كانت صبريّة تعمل في مكبس للتمور نهارًا، وعاهرةً تلتقط رزقها ليلًا، ضمن شبكة صغيرة تضمها مع ثلاث فتيات أخريات وقوّادة تكبرهن سنًّا تدعى أم عروبة، اعتقلتهن القوات البريطانيّة عند دخولها البصرة مع من اعتقلتهم من مقاومين اختبأوا صدفة في منزلهن. وفي السجن، تعرّفت صبريّة إلى عفاف زيدان، الشيوعيّة العنيدة والتي تنشط في أوساط النّساء من الطبقة الفقيرة، ولاسيّما العاملاتُ في السُوق من بائعات الخضار والأسماك وحتّى بائعات الهوى. وعلى مدى ثلاثة أشهر، توطّدت علاقة صبريّة تحديدًا بعفاف إلى درجة أنّها كانت تمارس الجنس مع أفراد الحرس في اللّيل في مقابل علبة سجائر واحدة من أجل عفاف المدمنة

على التدخين. كانت عفاف تتمتّع بقدرة مَهُولة على جذب الناس إليها وبناء العلاقات ورفع الحواجز والدُخول في صداقات حميمة بسرعة، ولاسيّما مع النّساء. أمّا الرجال، فكانت بطريقة أو بأخرى، تفرض احترامها عليهم، على الرَّغم من أنّها لا تميل إلى الأسلوب الصدامي والعنيف معهم. وحكت لي صبريّة عن حادثة جرت في المعتقل، قالت:

ـ في إحدى اللّيالي، عندما كنّا نلعب الورق، حضر الضابط المناوب وكان اسمه النقيب سلمان، وكان واحدًا من أخبث الضباط العاملين في المعتقل، وطلب من عفاف الاقتراب من حاجز القضبان الحديديّة، وعندما اقتربت مدّ يده ملامسًا نهدها، فأمسكت يده ولوتها بقوّة، وبالكاد تمكّن من تخليصها منها. ونعتها بالعاهرة، فردّت عليه بهدوء ومن دون غضب:

ـ بل أنت العاهر، يا عزيزي. أنت من يعمل مطيّة لدى المحتلّ، ولست أنا. فمن فينا العاهر يا ترى؟

نظر النقيب سلمان إليها شزرًا، وقال:

ـ سأعلّمك درسًا لن تنسيه ما حييت.

ثمّ أمر بإخراجها وجرّها إلى غرفة التحقيق، وهناك كبّلوا يديها إلى مسند أحد الكراسي وراح يمزّق قميصها ويعتصر نهديها، وكانت تكتفي بابتسامة ساخرة. فصفعها بقوّة ارتدّ رأسها معها إلى الخلف، لكنّها كانت رابطة الجأش، ونظرت إليه بإمعان وقالت:

ـ مارس جبنك. تلذّذ بخسّتك يا عديم المروءة والرجولة. عوّض عن نقصك.

فكان غضبه يزداد ويأخذ بتوجيه الصفعات إليها حتّى يُغمى عليها، عندها فقط ينادي جلاوزته ليسكبوا سطل ماء عليها ويجرُّوها جرًا إلى الزنزانة من جديد، فنهرع لمواساتها ومعالجة جروحها وسَترها.

توقّفت السّيّارة تمامًا، ولم يعد في الإمكان التقدُّم خطوة واحدة وسط مخاضة الباعة والحمّالين تلك، فركنتُها أمام بناية قديمة مهترئة، وترجّلنا منها، وراحت صبريّة تعدّل وضع عباءتها فوق رأسها قبل أن تقودني إلى المدخل الذي تعتليه لافتة عتيقة خُطت بالثُّلُث المُتقن: فندق الهناء. ولا أدري ما الذي أوحى إلى صاحب الفندق العتيق بهذا الاسم؟

تفرّس مالك الفندق في وجه صبريّة، ثمّ نظر إليّ قبل أن يبتسم ويقول:

ـ الساعة بخمسة دنانير. والدَّفع مُقدَّمًا. وإذا حدثت مداهمة أنا لست مسؤولًا.

نظرت إليه صبريَّة وصاحت مستنكرة:

ـ خمسة دنانير! ماذا دهاك؟ ألم نتَّفق على ثلاثة. لا تكون رأيت هذا الرَّجل معي فظننته ثريًّا؟ لا عيني لا، ليس في جيبه سوى ستة دنانير.

ثمَّ استدارت نحوي وسحبتني من يدي:

ـ امشِ عيني امشِ. دعنا نبحث عن فندق آخر.

فصاح الرَّجل مناديًا باستغراب:

ـ صبريَّة، ما لك؟ تعالي نتفاهم. بسيطة، لن نختلف.

فاقتربت صبريَّة منه وفردت كفَّها أمامي، وقالت:

ـ أعطني ستَّة دنانير.

فأخرجت ستَّة دنانير أخذتها منِّي ووضعتها على الطاولة أمام الرجل مالك الفندق، وقالت:

ـ أمسِك. هذه ستَّة دنانير. ثلاثة عنِّي، وثلاثة عن امرأة أخرى ستأتي لاحقًا لتنام مع الرَّجل بعد ذلك.

فنظر مالك الفندق إليَّ مندهشًا، وقبل أن يسأل، بادرته قائلة:

ـ ما بك أبلمت؟ الرَّجل معافًى، ويريد أن ينام مع اثنتين اليوم. غريبة؟!

فضحك مالك الفندق، ونظر إليَّ وقال:

ـ أبدًا، لا ضير في هذا ما دام سيدفع.

ثمَّ سلَّم صبريَّة مفتاح إحدى الغرف في الطابق الأوَّل، فصعدنا السلَّم المتهالك، حيث الغرفة الصغيرة، التي بدت مثل فرن حقيقيّ في تلك السَّاعة من النهار، إذ لم تكن ثمَّة مروحة فيها. فقط خزانة خشبيَّة قديمة، وسرير متَّسخ، ونافذة تطلّ على سوق السَّمك. فتحتُ النافذة طلبًا للقليل من الهواء، فطالعني منظر السُّوق ومظلَّات الجوت وأقفاص الخضار المنتشرة أكداسها لصق جدار الفندق.

ـ أغلقِ النافذة. ماذا تفعل؟ ستفضحنا.

قالت صبريَّة مستنكرة، وهرعت لتغلق النافذة.

ـ لا يوجد هواء في الغرفة. الجوّ خانق هنا.

نظرت إليَّ صبريَّة بمكر، وراحت تخلع قميصها القطنيّ ولاح نهداها

الكبيران مزمومين عنوة بصدريَّة من الدانتيل الأسود، بينما غرقتُ بعرقي ورحت أهوِي.

ـ ماذا تفعلين الآن؟ هل جُننتِ؟!

لكنَّها استمرَّت في خلع ملابسها غير عابئة باحتجاجي، وشممتُ عطرًا رخيصًا ينبعث من جسدها المكتنز، ثمَّ اقتربت منِّي محاولةً فتحَ أزرار قميصي، فابتعدت عنها إلى زاوية الغرفة.

ـ ماذا تفعلين؟ لا أجد هذا ضروريًا الآن. كان اتِّفاقنا أن تتركيني في الغرفة وتذهبي لإحضار عفاف كي أقابلها هنا.

ـ أعرف ذلك. لكن علينا تأدية الدَّور كما يجب. هل ظننت أن مالك الفندق لا يراقبنا؟ ما بك؟ هذا إجراء ضروريّ كي نُقنعه تمامًا بأنَّنا أتينا لممارسة الجنس، هل تريد أن يشك فينا ويبلِّغ الأمن، ويلقوا القبض على عفاف؟

ـ لكن، كيف سيعرف أنَّنا مارسنا الجنس من عدمه؟ سنمكثُ قليلًا في الغرفة، ثمَّ تنزلين للبحث عن عفاف وتحضرينها.

ـ لا، صدِّقني سيعرف ذلك. لا تستهن به. إنَّه مثل ثعلب ماكر.

لم أقتنع بتبريراتها في الحقيقة وبقيت متشكِّكًا، ولم أسمح لها بالاقتراب منِّي، بينما ظلَّت تتودَّد إليَّ وتُريني عجيزتها وفرجَها الغائر تحت شعر عانتها. وبفعل الحرّ اللَّاهب في الغرفة شعرتُ بإثارة ما، لكنَّني كتمتها عنوة، وظلَّت صبريَّة تتأوَّه كما لو كانت فعلًا تمارس الجنس كي تُسمع مالك الفندق، وأنا أنظر إليها من زاويتي مندهشًا. كان العرق ينزّ من جسدها، وانبعثت رائحتها الفائرة في جوف الغرفة وهي تطلق الآهات وتتلوَّى والسَّرير ينئزّ تحتها، حتَّى سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب من الخارج. صاحت صبريَّة بجفول:

ـ من هناك؟

فجاءنا صوتُ الرَّجل مالك الفندق هامسًا:

ـ صبريَّة. الزمي الهدوء. ماذا دهاك؟ ستلفين الناس علينا.

توقَّفت صبريَّة عن التأوُّه، ونظرت إليَّ مبتسمة بغموض، ثمَّ كتمت ضحكة عابرة ووضعت سبَّابتها على شفتيها، ولم أكن أقوى على الكلام وبقيتُ شبه مخدَّر والعرق ينزّ من جسدي كلِّه، ثمَّ راحت صبريَّة ترتدي ملابسها، وألقت بالعباءة فوق رأسها. وقالت قرب الباب وهي تمسح العرق

عن جبينها وحاجبيها:

ـ انتظر هنا، وراقبني من النافذة. سأذهب لأحضر عفاف. لا تغادرِ الغرفة حتّى أعود. وأغلقِ الباب خلفي حالما أخرج.

خرجتُ على عَجَل ونهضتُ وأغلقتُ الباب خلفها وسمعتُها تتحدّث ضاحكةً مع مالك الفندق، ثمَّ جثوت على السّرير ورحت أراقب حركة السُوق من ظلفة النافذة المواربة، ولمحت من بعيد صبريَّة تغوص في لجّة الزحام، قبل أن تتوقَّف قرب شاخصة جريديَّة وتستدير ناحيَتي وتشير إليَّ بإشارة مموَّهة، فهمت منها أن أكون حذرًا، ثمَّ عدّلَت وضع عباءتها فوق رأسها وغابت عن ناظرَي.

بقيت ملتاعًا وسط حرارة الغرفة الفائرة، وأحسَست بالعطش الشديد بعد أن فقد جسمي كافّة سوائله بسب العرق الذي ما زال يتصبَّب منّي. فتحت باب الغرفة بحذر، وتطلّعت في الممز بحثًا عن أثر لحمّام قريب أو صنبور ماء من دون جدوى، فعدت إلى غلق الباب والتُطلُّع من النافذة المواربة. وخيّل إليَّ بعد لحظات كما لو كنت لمحت صبريَّة ومعها امرأة متوسّطة الطول تتلفَّع بعباءتها، لم أستطع أن أحدّد من مكاني إذا كانت عفافَ أم امرأةً أخرى، وانتظرت حتّى تقتربا قليلًا، لكنَّهما توقَّفنا فجأة وراحتا تشيران إليَّ بحركات مبهمة لم أفهم مغزاها، وشعرت كما لو كانتا تطلبان منّي التُطلُّع إلى أسفل الفندق، ففتحت النافذة وأطللت بحذر، فرأيت سيَّارة شرطة وعددًا من رجال الأمن يتجمَّعون أمام الفندق. وقبل أن أكمل ارتداء قميصي المبلَّل بالعرق، سمعت طَرقًا قويًّا على باب الغرفة، فخفق قلبي وشعرت بذعر شديد، وتبلبلت أفكاري، ولمحت صبريَّة والمرأة التي معها تشيران إليَّ بالقدوم، ثمَّ أخذ الطَّرق يزداد قوَّة، وراح أحدهم يركل الباب بعنف محاولًا كسره، فاعتليت حافَّة النافذة وألقيت نفسي فوق أكداس الأقفاص والخضروات الفاسدة تحت، وشعرت بعظامي تنطحن، وانبعث ألم حادّ في كاحلي، ثمَّ نهضتُ مرتعبًا ورحت أعرجُ. ولمحت من بعيد عددًا من رجال الأمن يشقّون الزحام بصعوبة محاولين الوصول إليَّ، ثمَّ شعرت فجأة بامرأة جالسة تجذبني وتطلب منّي أن أهدأ، فجثوت خلف ظهرها وغطتني بطرف عباءتها الكبيرة، وشممت رائحة عرقها مخلوطة برائحة السّمك، وسمعت همهمات رجال الأمن وهم يشقُّون طريقهم وسط زحمة السُوق بعيدًا عنّي.

خرجتُ من سوق الماشية وأنا أعرُجُ، وألمٌ حادٌّ ينبعث من كاحلي، وواصلت السير بصعوبة حتَّى ابتعدت عن الزحام. وشيئًا فشيئًا تناقص عدد المارّة في الأزقّة، وكنت متعَبًا والعرقُ يتصبَّب من جبهتي ورقبتي بسبب حرارة الشمس التي كادت أشعتها تخترق رأسي، لكنَّني كنت منتشيًا بغموض وغيرَ عابئ كما لو كانت ذاكرتي مغيَّبة. وما إن ابتعدت عن الزحمة قليلًا حتَّى لمحت امرأة تسير أمامي. بدت متوسِّطة الطول وخطواتُها متسارعة، وراحت تلتفت نحوي بين الحين والآخر، وهي تزمّ أطراف عباءتها حول وجهها الأسمر وغرّتها المجعَّدة، ولم يكن لديَّ أدنى شك في أنَّها المرأة نفسها، فتبعتها حتَّى خرجنا من ظاهر المدينة، وشيئًا فشيئًا رحنا نقترب من المقبرة. وهناك، وسط القبور العالية والشواهد، أضعت أثرها، فرحت أبحث عنها بلهفة، وكان الرَّمل ساخنًا يكاد يسلخ قدميَّ. وبعد دورة كاملة حول المقبرة لمحتها تجلس مقرفصة إلى جوار قبر عالٍ، فاقتربت منها فَرِحًا وجثوت قربها، فابتسمت لي ولاحت قواطعها الأليفة، ثمَّ مدَّت ذراعها وسحبتني وراءها ورحنا نحبو فوق الرَّمل السَّاخن حتَّى شارفنا على حافَّة الخسف المَهول. ورحت أتطلَّع إلى منظر النساء اللَّاهيات في عزلتهن الباردة. كُنَّ نائمات في قيلولتهن باستثناء واحدة تُعلِّق عنقودًا من العنب بيدها، وتلتقط الحبَّات الطريَّة بشفتيها اللَّتين تنذتا بالعصير القاني، وما إن رأتنا حتَّى ألقت العنقود جانبًا ونهضت مُتطلِّعة، وراحت تلوِّح لنا بفرح من بعيد. وفجأة وضعت الفتاة ذراعها حول رقبتي وقالت بدلال:

ـ أولئك نحن. انظر إلينا كم نحن جميلات؟ هل عرفتني من بينهن؟ احزر. أيُّهنَّ أنا من بين أولئك الفتيات السَّبع؟ إن حزرت فسأعطيك قبلة من فمي.

تطلَّعت إلى وجهها الأسمر. كان ناعمًا وذا لون ذهبي يتقاطع على صفحته خطّا حاجبيها الطويلين وأنفُها المستقيم، وكانت ابتسامتها مهادنةً، وشفتُها العليا الممتلئةُ مرفوعةً قليلًا، كاشفةً عن قواطعها البيض، على نحو يعطيها شكلًا أليفًا. وكان العَرَقُ وذرَّاتُ الرَّمل تعفِّر وجهينا وتندس تحت إبطَي كلٍّ منَّا. نظرتُ إلى الفتيات النائمات في الأسفل، وأشرت إلى تلك التي تلوِّح لنا من بعيد:

ـ تلك أنتِ هناك، التي تلوِّح لنا من بعيد.

وما إن أنهيت جملتي حتَّى لمحت امرأة تقترب، لم أستطع، من مكاني، التَّعرُّفَ إلى ملامحها. كانت تخطو في اتِّجاهي بخطى ثابتة،

تتخاطف أطراف عباءتها وسط الريح، فاعتدلت في جلستي مستطلعًا. وشيئًا فشيئًا بدا وجهها الأبيضُ وشعرُها المموَّجُ القصيرُ يتَّضحان، فصحت فَرِحًا:

ـ عفاف، يا عزيزتي. هل رأيتِ ما حدث لي؟

لم تُجبني، وظلت تتطلَّع إلى الأفق الرَّمليّ البعيد.

ـ لقد داهم رجال الأمن الفندق، فخفتُ عليكِ، وقفزتُ من النافذة هاربًا وأنا أعرُج. فكاحلي يؤلمني بشدَّة.

التفتت عفاف ناحيتي، وقالت مستنكرة:

ـ أيّ فندق هذا؟!

ـ فندق الهناء. ما بك؟

ثمَّ رفعتُ ثوبي وأريتُها ساقي التي بدت متورِّمة وعظمتها ناتئة:

ـ انظري. لقد كُسرت ساقي على ما أظنّ. لا أستطيع تحمُّل الألم.

عادت عفاف إلى تأمُّل الأفق الرَّمليّ، حيث بدأت الشمس بالمغيب:

ـ أنت السَّبب في ذلك. لقد رفضت علاج ساقك منذ الحادث، ومللتُ من محاولات إقناعك بضرورة اصطحابك إلى الطبيب.

ـ أيّ حادث، يا عفاف؟

نظرت ناحيَّتي ثانية، وقالت مستنكرة:

ـ عدنا إلى هذا الحديث من جديد.

فاستغربتُ ردَّة فعلها، وقلت لها متوسِّلًا:

ـ أرجوكِ، أخبريني يا عفاف، عن أيّ حادث تتَّحدَّثين؟ ألم تَريني حين قفزت من نافذة الفندق فوق أقفاص الدجاج؟

ـ لا، لم تقفز من الفندق، ولم يكن ثمَّة رجال أمن في انتظاري. أنت لا تريد مواجهة الأمر. تحاول الهرب من الحقيقة، ظنًّا منك أنَّها ستتغيَّر حين تُنكرها. لقد كُسرت ساقك حين رمتك ياقوت من فوق السَّطح، ومنذ ذلك الحين ترفض الذهاب معي إلى الطبيب لعلاجها.

ـ ماذا؟ رمتني ياقوت من السطح؟! ولِمَ تفعل ذلك؟ ما هذا الكلام الغريب الذي تقولينه؟

ـ نعم، هذه هي الحقيقة، حين حاصر سيِّد محسن وجماعتُه الدارَ، وأوصدوا الأبوابَ والنوافذَ بالألواح والمساميرِ، ثمَّ راحوا يرمون المشاعل

عبر الباحة، حتَّى انتشرت النارُ في بيت السُودان، وأكلت كلَّ شيء، واشتعل حريق كبير ظلّ يتأجَّج طوالَ اللَّيلِ، ولم يأتِ أحدٌ لإطفائه أو نجدةِ الفتيات، فتقوَّضت جدرانُه وسط الرَّماد الأسود. لم ينجُ أحد من تلك المحرقة، يا حبيبي، حتَّى الحمام. أرواحُهن البريئة ما زالت تحوّم هناك وسط صمت المدينة وخذلانِها، ولن يجدنَ سلامَهن حتى تعودَ إلى وعيك وتأتيَ معي.

كانت عفاف تروي لي الحكاية بطريقة آليّة كما لو كانت قد روتها عشرات المرَّات من قبل، ولم تكن تنظر ناحيتي، بل تتطلَّع إلى الأفق البعيد فحسب. وكنت أرتعد وأزيح الرَّمل عن أطراف ثوبي، محاولًا عدمَ النظر إليها في تلك اللَّحظات، لكنَّها واصلت الكلام بإصرار موجع:

ـ جرَّتك ياقوت جزًا وسط ألسنة اللَّهب وصعدت بك إلى السطح، ومن هناك ساعدتك على اعتلاء السِّياج، وطلبت منك أن تقفز، فرفضت بشدَّة وكنت متمسِّكًا بها، لكنَّها خلَصت ذراعيها منك ودفعتك بقوَّة بعد أن وعدتك بالقفز خلفك حتَّى هويت فوق أكداس الحطب خارج البيت المشتعل، وهناك تلقَّفك جماعة سيِّد محسن وأوسعوك ضربًا حتَّى أغمي عليك وبقيتَ مرميًا تحت الحطام إلى ساعة متأخِّرة من اللَّيل، عندما وصلنا أنا وصبريَّة وسحبناك إلى أطراف البستان، وغسلنا جروحك، وجبَّرنا ساقك المكسورة. وفي الصَّباح، عندما استعدتَ وعيك، خرجت لي بحكاية فندق الهناء تلك، ثمَّ رحتَ تجوب المقابر وأنا أبحث عنك جاهدةً كلّ يوم.

ثمَّ اقتربتْ منِّي، وقالت بتوسُّل هذه المرَّة:

ـ علاوي حبيبي، هيّا عُد معي، ودعني أعالجك وأحممك. أرجوك تمالك وعيك، لا تُذمِ قلبي وتفجعه مرَّتين. أنت الوحيد المتبقي ليَ في هذا العالم. أرجوك. اشعز بوجعي وألمي، ولا تدعني أعود خائبة مثل كلّ ليلة. مبيتُك في المقبرة يفاقم أزمتك ولن يُنسيك فجيعتَك، صدِّقني.

ثمَّ راحت تمسح رأسي بيدها الراجفة وتبكي بحرقة. أمَا أنا، فلم أكن أعي ما تقول، وبقيت شارد الذهن. وبعد مدَّة، مددتُ يدي ومسحت دموعها الساخنةَ بأصابعي الراجفة.

ـ لا عليك، يا عزيزتي. لا عليك. انظري، هناك، إلى ذلك الخَسف الذي حدَّثتك عنه. لِمَ لا تأتين معي لأريك النِّساء السَّبعَ السَّابحاتِ في الجدول. ستندهشين لجمالهن يا عفافُ، صدِّقيني.

احتدَّتْ فجأة وصرخت مقاطعة:

ـ علاوي، أرجوك. كفَّ عن الحديث عن ذلك الخَسف. إنَّك تثير جنوني يا أخي. أليس في قلبك رحمةٌ، يا حبيبي. ألا ترى حاليَ. لن أصمد طويلًا ما لم تتمالك وعيَك، أرجوك.

ـ لكنَّهن هناك في...

ـ قلتُ كفى، أتوسَّل إليك. ياقوت ماتت، والبناتُ مِتنَ جميعُهن، وجدَّتُك «عجيبة» كذلك. مِتنَ جميعُهن بسبب الحريق الذي أشعله سيِّد محسن وجماعته. ألا تفهم؟ لِمَ لا تريد أن تصدِّق الأمر؟ إنكارُك له لا يغيِّر من الأمر شيئًا، يا حبيبي. عُد إلى عقلك، علاوي الغالي، ودعنا نتعاون على تخطي تلك الكارثة. لم يبق لنا سوى أحدنا للآخر. إن خسرتك فسأخسر نفسيَ أيضًا. لا أريد أن أسكن المقابر مثلك وأتعلَّق بوهم الخَسف الذي يَتَراءى لك. ذهنك مريض يا حبيبي، ويرسم لك الخيالات الوهميَّة التي ترغب فيها ليس إلّا.

ـ لكنْ، يا عفافُ! لا يمكن أن يكون كل ذلك وهمًا. أنا أرى هؤلاء النسوة يوميًا وأتحدَّث معهن. كلَّ يوم يلوِّحنَ لي من عمق الخسف ويدعينَني لأنضمَّ إليهنَّ.

اقتربت عفافُ منِّي أكثرَ، ومدَّت يدها وراحت تجرُّني من يدي بقوَّة في اتِّجاه المدينة التي بدأ اللَّيل يُرخي سدوله المظلمة فوقها، وأنا أرفض وأتشبَّث بشواهد القبور من حولي، وهي تبكي وتتوسَّل إليَّ. وكنت كلَّما التفتُّ ورائي، ألمح النِّساءَ السَّبعَ السَّوداواتِ يلوِّحن لي من بعيد، وفي لحظة خاطفة دهمني طيفٌ عابرٌ مثل طائر، وهتف في أذني بنبرة حنون:

ـ اذهبْ مع عفافُ يا حبيبي. لا تَخَفْ.

ثم اختفى، وظلَّ الصَّدى يتردَّد آفلًا وسط القبور:

ـ لا تَخَفْ... لا تَخَفْ... لا تَخَفْ.

صدر للمؤلف:

- ثغور الماء - رواية - ١٩٨٣

- غرفة مضاءة لفاطمة - قِصص - ١٩٨٦

- طواف مثصل - رواية - ١٩٨٨

- نصوص المرقاة - قِصص - ١٩٩٦

- خان الشابندر - رواية - ٢٠١٥